إيزابيـــــــــل

Isabelle

روايـــــــــة : أندريـــــه جيد

ترجمة وتقديم : فتحي العشري

اهداء

هدي سراج الدين

جوزين جـــودت

ليلي بسيونـــــي

زميلاتـي

فتحـــــــي

إيزابيل

مقدمة

أندريه جيد ٠٠٠ الأخلاقى

أندريه جيد هو الحائز على جائزة نوبل في الأداب عام ١٩٤٧ مضيفا للفرنسيين جائزة جديدة من هذه الجوائز العالمية الفريدة ٠٠٠

ولد أندريه جيد في الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٨٦٥ في العاصمة الفرنسية عن أب وصل الى كرسى القانون بكلية باريس وأم من اشرة ثرية ٠٠ كان الأب بول والام جولييت رونورد من صفوة المجتمع بحيث وجد أندريه نفسه وهو بعد في شبابه يجلس بين الوزراء ورجال الدين ٠٠ أما تعلميمه فقد تلقاه على أعلى مستوى بداية من المدرسة الألزاسية الداخلية التى أبعدته عن اسرته فترة مرض فيها ٠٠٠ فلما توفى والدة – عام ١٨٨٠ وكان أندريه في الخامسة عشرة اصيبت الام بحالة عصبية ثم انتقلت الى مونبلييه مع ابنها الى جانب عمه رجل القانون والدراسات السياسية ولكن في شقة ضيقة بعيدة عن مظاهر الثراء الاولى ولاندرى لماذا ٠٠

ومع هذا فرضت الام البروتستاتينية المتشددة رقابة مشددة على ابنها ولم تنس انها نورماندية بورجوازية حتى بعد رحيل الاب وتراجع مستوى الاسرةالاقتصادى ٠٠ لم تكن الام هى المرأة الوحيدة في شباب أندريه فقد قامت على رعايته نساء أخريات منهن خاله ماتيلدا التى اقام معها عام ١٨٨٢ وعايش إبنتها مادلين التى أثرت فيه كثيرا لدرجة أنها اصبحت بطلة لاحدى رواياته وهى " اللاخلاقى التى كتبها عام ١٩٠٢ ٠٠

أفاد أندريه في هذه المرحلة من العزلة بزيادة القراءة والتأمل من ناحية وبنزعة التمرد والثورة التى ظهرت في كل كتاباته من ناحية اخرى ٠٠

وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الاول " كراسات أندريه فالتر " وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ٠٠ ويلاحظ انه لم يعلن عن اسمه صراحة فاستعار اسما اخر والواقع انها مذكرات اكثر منها اى شىء اخر ٠٠٠ ولم يكن هذا بسبب الكبت والتزمت وحدهما ولكنه كان ايضا نتيجة لتعرفة على " مالارميه " وهويسمان و" مانييرلنك " ٠٠

ووصل تمرد أندريه جيد الى حد مهاجمة فكرة الاسرة وخطأ الرجل في الارتباط بأمرأة وانه لاتوجد أسرة مثالية ٠٠٠ ودون تلك الافكار الغريبة على المجتمع في " بحث نرسيس " والكلمة كما هو معروف تعنى " النرجسية " او حب الذات ٠٠٠ وهو ماكشف عن مسعى جيد الدائم للحرية فهو يستهدف تحرير نفسه وتحرير الانسان بشكل عام ٠٠٠

في هذه الفترة وهو بعيد عن امه كتب لها رسائل يعبر فيها عن حبه لها رغم ضيقه من تشددها لانه لم ينس أنها هى التى شجعته على القراءة وانها الانسان الوحيد الذى يأنس الهويستكين معه ٠٠٠ حتى أن " كراسات يفالتر " جاءت الهاما من امه فضلا عن التأثر بالافكار القادمة من المانيا وبريطانيا ٠٠٠

فالفيلسوف نيتشة كان قد اطلق فلسفته الهتلرية في فكرة " الانسان الخارق " وفي المقابل انطلقت على يدى اوسكار وايلد الدعوة للايمان بجمال الحياة والفن ٠٠٠ وانجاز جيد لوايلد ولكنه اثر ان يستطلع أراء اخرى فقرأ دوستوفسكى وبارريس وطالع تاريخ اليونان والرومان والتهم عددا من اللغات ومنها اللغة العربية ٠٠٠

ولعل الافكار المتعارضة سواء القامة من الخارج او تلك التى نادى بها واعتنقها مفكرو فرنسا هى التى جعلت من جيد هو الاخر طائرا بجناحين وخاصى في شبابه فهو المغامر وهو العاقل في الوقت نفسه هو الذى يسعى للمتعة الذاتية وهو الذى يقدم على التضحية هو الذاتى وهو الغيرى في ذات الوقت ٠٠

من هنا تأثرت اعمالة فكتب " الاطعمة الارضية " والشاذ و" والباب الضيق " و" السيمفونية الريفية " و " المزيفون " ٠٠وهو أعمال تظهر هذا التناقض استهتارا ميشيل في " الشاذ " والتزام اليساد في الباب الضيق " والخارج على القانون لافاكاديو ورجل الدين المتسك بدينه الممسك بقيمه ٠٠٠

لكن عام ١٨٩٥ عصفت بجيد فقد ماتت امه ووجد نفسه وحيدا مكتئبا وكانت اصداء جوته بشعره وعبقريتة تتردد في كل كيانه ٠٠٠ عندئذ فكر في الارتباط بصديقة الصبا والاحلام مادلين ابنه خالته وكانه يبحث دائما عن امه في اقرب الناس اليها ٠٠٠

ومادلين فتاة رقيقة اثرت على جيد بقوة حتى انها اصبحت الشخصية المحورية في احدى رواياته وهى " اللاخلاقى " بل في اعمال اخرى ايضا ٠٠٠ وعلى الرغم من ان مادلين كانت تكبرة بثلاث سنوات الا انه كان يرعاها ويحتضنها حتى وهى تبدى نضجا وتعقلا وحكمة وجدية ٠٠٠ تحولت الصداقة اذن الى زواج وسافر معها الى شمال افريقيا وايطاليا وسويسرا وهى الرحلة مالتنكتب عنها في رواية " اللاخلاقى " التى تقترب كثيرا من شكل المذكرات ا وهى كذلك ٠٠

لم يهجر جيد فكرة المذكرات والاعترافات في اعمالة فسجل مراسلاته مع بول فاليرى في " اذا كانت البذرة لاتموت " ومع بول كلوديل في " اليوميات " ٠٠

لكن المذكرات الاهم جاءت في كتاب بدأه عام ١٨٨٩ وانتهى منه عام ١٩٤٧ ٠٠٠ وقد افضى في آخره عن خلاصته تدجربتة الحياتية والادبية اذا قال " أقمت مدينتى التى سيسكنها فكرى من بعدى مخلدا الى الابد وانا اشعر بالرضى لانى اطرق باب الموت وحدى بعد ان اشتمتعت بخيرات الدنيا وشعرت بأننى سأكون سببا في اسعاد الناس الذين

سيكونون من بعدى اسعد حالا واكثر حرية وافضل وضعا ٠٠٠ لقد قمت بعملى من اجل خير الاجيال البشرية القادمة ٠ ولقد عشت حياتى ٠٠

ولعل اهم اعمال جيد بعد ذلك تتمثل في " معاهدة نرسيس عام ١٨٩٢ ورحلة عام ١٩٠٧ " والباب الضيق عام ١٩٠٩ و" ايزابيل عا م ١٩١١ ٠٠

ورغم كل هذه الاعمال لم ينتشر اسم جيد ولم تتحققشهرته ولم ينل تقديره ولم يحظى بمجدة الا بعد ان قدم المسرح الفرنسى معالجة درامية لاحدى رواياته ٠٠

فقد قال عنه الناقد الفرنسى " بنيامين كريميو " انه رغم شخصيته المضطربة المعقدة المتناقضة القلقة الا انه شخصيته نادرة وصورة ثرية لفنه الثرى ٠٠

ويقول د٠ نظمى لوقا إن قراءة دوستوفسكى وفريد قد اكسبت جيد قدرة أعلن أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التى تكبحها التربية وتكبتها في اعمق اعوارنا فإن لم تجد متنفسا لها سممت منابع الحكم العقلى وهكذا تتحول الاخلاقيات الظاهرة الى نفاق ورياء ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ولو ادى ذلك الى الفضيحة ويعتقد انه ربما اظهرت في هذا الاطار الصريح شعلة العبقرية ٠٠٠ هو اذن ضد الانقياد للاخلاقيات الشائعة بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقيادا أعمى ولكنه مع هذا احتفظ في تكوينه النفسى بتيار متدين وهذا هو السر في معظم اعماله لاستشهادة في كثير من المواضيع بالانجيل "٠٠٠

إسمعه يقول " كم أتمنى أن اقمع شهواتى بالعمل المضنى "٠٠٠ وقد قيل عنه أنه يتمتع بعاطفة دينية دفينه رغم أفكاره التحررية فهو يذكر الله والاخرة بطريقة المتصوف الزاهد الذى يدرك ان نهاة المطاف تفضى الى لقاء الله فهو الوحيد في كل مكان ٠٠٠

فإذا تناولنا رواية مثل " اللاخلاقى " وجدنا ان جيد هو نفسه ميشيل في علاقته بالحياة والناس وامه أما والده فلم يذكر كثيرا بينما تحدث عن افريقيا طويلا نتيجة لزيارته لها مركزا على الجزائر وتونس وبصفة خاصة مدينة سوسة التى عاش فيها الوقت الاكبر من رحلته الافريقية فهو يرى ان افريقيا تحمل في داخلها جاذبية غريبة على حد تعبيره ٠٠٠

امعه يقول عن افريقيا " إننى في افريقيا اسمع وارى واتنفس مثلما لا افعل في اى مكان وحينما تتسلل عطورها والوانها وعبقها في داخلى فأننى احس بقلبى يفرح وينتحب من العرفان الجميل ٠٠٠ خدونى الى داخل هذه الارض كم اصبح وانا احس بضيائها وياله من ضياء مشع " ٠٠٠

اما اذا تناولنا هذه الرواية " إيزابيل " فسنجد انه يعترض على تحرر البطلة الزائد والرغبة في التخلص من القيود بأى طريقة وبأى ثمن ٠٠ مما يؤكد ان هذا الاعتراض لا يتعارض مع رفضة للتزمت والرقابة والقهر وهما ماتعانى منه المرأة اكثر من الرجل في كل المجتمعات حتى المتقدمة منها ٠٠٠

وتقديرا لاحساسة بالناس ومحاولة تمهيد طريق الهداية والقناعة والرضى والايمان امامهم منح جائزة نوبل العالمية في الاداب عام ١٩٤٧٠٠

ورحل جيد فى عام ١٩٥١ عن ٨٦ عاما لم يحس في أواخرها أبدا انه كهل اصابة الوهن ودهمته الشيخوخة فقد ظل يكتب ويبدع بعد بلوغة الثمانين من عمره ولم يكف الا بعد ان اصابه المرض في السنوات الثلاث الاخير ة من عمره ٠٠٠

Isabelle

Par : Andre Gide

ايزابيل

ترجمة وتقديم : فتحى العشرى

شخصيات الرواية

جيرار لاكاز **Gerard Lacase**

بينجمان فلوش **Benjamin Floche**

مدام فلوش **Mme Floche**

سان – أوريول **Saint – Aureol**

مدام دى سان – أوريول Saint – Aureol	Mme de
لابيه سانتال Santal	L Abbe
ايزابيل	Isabelle
كازيمير	Casimir
الانسة فيردور Verdure	Mlle
جراسيان	Cratien

إيزابيـــــــــــــل

جيرار لا كاز الذى تقابلنا عنده في أغسطس عام ١٨٩١ قام باصطحابى وفرنسيس جا م الى قصر " الكارفورش " بعدما اندثر ولم يبقى منه غير أطلال خربة وحيقة شاسعة مهملة يصول ويجول فيها الصيف بتبهرجه – حتى مدخل القصر لم يعد يحميه شىء ٠ فالخندق ردم حتى نصفه والسياج المحيط به تهدم والباب الحديدى لم يعد محكما لدرجة انه يستسلم لاول دفعة من كتف احدنا ٠ إختفت الممرات بعد ان جاوزت الارض الخضراء حدودها فترى بعض الابقار طليقة ترعى الكلأ الغزير ٠٠٠ بينما تنشد بعض الابقار الاخرى مكانا رطبا وسط الادغال المترامية الاطراف ٠لايميز المشاهد هذا الفيض البرى زهرة غريبة كانت او اوراق شجرة مختلفة عن النباتات القديمة تكاد تخنقها النباتات الشائعة بأنواعها ٠

كنا نسير خلف جيرار دون ان ننطق بكلمة واحدة كنا مبهورين بروعة المكان والتوقيت ونشعر بكل ماينطوى علية ذلك الرخاء من حزن وهجر ٠ بلغنا سلم القصر ودرجاته الاولى الغارقة في الاعشاب بينما درجاته العليا محطمة زمنفصلة بعضها عن البعض الاخر ٠ وما أن وصلنا الى ابواب غرفة الاستقبال وهى نوافذ في الوقت نفسة حتى إعترضتنا مصاريعها المنيعة ٠ لم تنمكن من دخول القصر الا من فتحة في القبو تسللنا عبرها كما اللصوص كان هناك سلم يؤدى الى المطابخ فلم تكن الابواب الداخلية مغلقة ٠٠ واصلنا متنقلين من غرفة الى اخرى بجذر ، فالأرضية تميد تحت اقدامنا موشكة على الانهيار نضغط صوت خطواتنا ليس خشية من ان يسمعنا احد ولكن لان الصدى الذى

احدثه وجودنا في القصر الخال المتسم بالسكون المطبق كان يدوى لدرجة الفزع خاصة وان نوافذ الطابق السفلى خلت من الالواح الزجاجية

في شبه الظلام الذى يكتنف غرفة الطعام وجدت اعشاب البينونيا من خلال مصراعى النافذة بسيقانها الضخمة اللينه البيضاء اللون ٠

جيرار تركنا وإعتقدنا انه فضل ان يشاهد وحدة مرة اخرى هذا القصر الذى عرف اصحابه فواصلنا تفقدنا بدونه اذ ربما يكون قد سبقنا الى الطابق الاول مجتازا تلك الغرف الفارغة التى تخيم عليها الكآبه في إحدى تلك الغرف عصن من البقس لايزال يتدلى علىالجدار يقيدة الى ابزيم شريط حريرى إنطفأ لونه وبدا متأرجحا عند طرفى رباطه في وهن فأدركت ان جيرار إنتزع منه فرعا وهو يمر منذ برهة ٠

قابلنا جيرار في الطابق الثانى بالقرب من نافذة احد الممرات كانت بلا زجاج ينفذ منها حبلا يتدنى من الخارج وهو لاحد الاجراس همت بجذبه برقة وعلى مهل فشعرت بذراع جيرار تمسك بذراعى ولكنها زادت من مداها بدلا من أن توقف حركتى ٠

وفجأة دوى صوت مكتوم بالقرب منا بحيث جعلنا ننتفض في فزع بعدها ولما عاد السكون سمعنا دقتين متباعدتين لم يلبث أن غاب صداهما٠

إستدرت ناحية جيرار فرأيت شفتيه ترتعدان وهو يقول :

هيا بنا ننصرف فأنا في حاجة الى استنشاق هواء اخر

عند خروجنا اعتذر جيرار عن استمرار اصطحابنا بدعوى معرفته لشخص في الأحياء المجاورة يريد أن يستفسر عن أحوالة ٠فلما أدركنا من لهجته انه لايليق أن نصحبه عدت مع جام الى حيث لحق بنا جيرار في المساء ٠

قال جام لجيرار بعد برهة :

صديقى العزيز قررت الا أروى أيه قصة قبل ان تطلعنات على هذه القصة التى تملك عليك فؤادك

علما بأن قصص جام كانت مبعث متعة في سهراتنا

قال جيرار

يسعدنى أن أروى لكما القصة التى كان القصر مسرحا لها فضلا عن اننى لا استطيع عرضها أو استعراضها كاملة ، لاننى أخشى الا اتمكن من ذلك فأسلب من وقائعها ذلك السحر الذى يغلف الالغاز وكان فضولى فيما مضى يخلعه عليها ٠

عقب جام قائلا "

لاتبال بنظام أو تسلسل

وقلت :

ما الداعى لرواية الوقائع طبقا لتسلسل التاريخى ، وما المانع من عرضها كما عرضت لك ؟

قال جيرار :

هكذا تتيحان لى أن أتحدث عن نفسى كثيرا

رد جام من فوره قائلا :

لا أحد منا يفعل غير ذلك

واليكم القصة التى رواها جيرار

(١)

يكاد يكون من الصعب اليوم إدراك الشغف الذى كان يدفعنى الى الحياة كنت في الخامسة والعشرين من العمر لا أدرى عن الحياة شيئا الا عن طريق الكتب ٠ وربما كان هذا هو السبب الذى جعلنى أظن نفسى روائيا ٠كنت لازلت اجهل أن الاحداث تحجب عن عيوننا بالدهاء والمكر وذلك الجانب الذى قد يزيد من إهتمامنا بها وكيف انها تستغلق علينا وتمتنع اذا لم نكن نعرف كيف نقتحمها ٠

كنت في ذلك الحين اعد لرسالة الدكتوراة عن تاريخ " حكم بوسوييه " ولم يكن ذلك عن ميل خاص يجذبنى الى بلاغة اصحاب المنابر وانما اختيارى لهذا الموضوع جاء تكريما لاستاذى الجليل " البير دينوس " الذى كان كتابه العظيم " حياة بوسوييه " على وشك الصدور ٠ وما ان علم الاستاذ دينوس بموضوع رسالى حتى ابدى استعداده لمساعدتى في منهجه وتناوله مع اقدم اصدقائة ويدعى " بنيامين فلوش " العضو في مجمع الخطوط والاداب ٠

هذا الصديق كان يملك وثائق تفيدنى في بحثى وخاصة نسخة من التوراة بها شرح وحواش بخط بوسوييه وكان السيد فلوش قد اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عاما تقريبا واعتكف في قصر الكارفورش الذى كان الناس يطلقون غالبا في الغلب " كارفور " وهو من ممتلكات الاسرة في ضواحى " بون ليفيك " ولم يعد السيد فلوش يبرح هذا القصر

ومن دواعى سرورى ان لى ستقبلنى فيه ووضع تحت تصرفى مستنداته ومكتبة وعلمه الغزير الذى قال عنه الاستاذ دينوس انه علم لا ينضب معينه ٠

وأخذ السيد دينوس والسيد فلوش يتبادلان الرسائر وتبين ان الوثائق كانت اكثر مما توقعت في بادىء الامر كما توقع استاذى ولم يتوقف الامر عند الزيارة فقد تحول الى اقامة في القصر عرضها على بلطف السيد فلوش بناء على توصية من السيد دينوش ٠لم يكن للسيد فلوض وزوجته اولادا ومع هذا لم يعيشا في القصر بمفردهما ٠ كلمات صدرت عفوية عن السيد " فلوش ´وتلقاها خيالى جعلتنى اتوقع ان اجد في القصر صحبة جميلة سرعان ما اجتذبتنى اكثر من وثائق القرن السابع عشر العظيم والمليئة بالاتربة وكأن بى أدخل القصر لا طالبا للعلم ولكن مغامرا ٠

كتى انى ملأت القصر بالمغمرة قبل أن أدخلة ٠كنت أردد إسم " الكارفوش " بغموضة وأحدث نفسى قائلا " هنا يتردد هرقل " ٠٠ وأعرف ما ينتظرخ على طريق الهداية والفضيلة ولكن ماهو الطريق الاخر ؟٠٠ الطريق الآخر ؟ ٠٠

في منتصف سبتمبر بالتقريب جمعت أفضل مافى دولاب ملابسى من ثياب متواضعة وجددت أربطة العنق ثم رحلت ٠

لما بلغت محطة " بروى – بلانجى " بين " بون ليفيك " و " ليزيو " كان الليل قد اسدل كل استارة تقريبا كنت الوحيد الذى هبط من القطار أقبل قروى يرتدى زى الخدم وأخذ حقيبتى وصحبنى الى عربة كانت تقف في الجانب الاخر من المحطة ٠ حد مشهد الجواد والعربة من جموح خيالى وانطلاقه فلا يمكن للانسان أن يتصور منظرا اكثر فظاعة وقبحا وعاد القروى الحوذى ليتسبم صندوق الامتعة الذى كنت قد شحنته تحت هذا الثقل الزائد ناءت العجلات ٠ومن داخل العربة فاحت رائحة خانقة شبيهه بتلك التى تفوح من عشش الدجاج ٠٠ أردت أن افتح زجاج الباب لكن مقبض الجلى خرج في يدى كانت السماء قد امطرت اثناء النهار فكان الطريق موحلا وعند اول منحدر سقطت قطعة من طاقم الجواد فاخرج الحوذى من تحت مقعدة طرفا من حبل وتهيأ لاصلاح مجرة العجلة ٠كنت قد نزلت من العربة وعرضت على الحوذى ان امسك له المصباح الذى كان قد اشعلةمنذ برهة ٠وهنا تمكنت من ان ارى زى الرجل المسكين الذى اعيد رتقه كما هى حال طاقم الجواد فقلت له :

الجلد قديم نوعا

رمقنى وكأننى لعنته وقال لهجة تكاد تكون فظة :

ومع هذا تمكنا لحسن حظك من المجىء للقائك

فسألته بصوت رقيق :

هل المسافة تبعد كثيرا عن القصر ؟

لم يرد بشكل مباشر ولكنه قال :

بالتأكيد : إننا لانقطع هذه المسافة كل يوم

ثم أضاف بعد لحظة :

مضت سته اشهر تقريبا ولم تخرج العربة

فعقبت في محاولة يائسة لفتح باب الحوار :

الا يتنزه سادتك ؟

هل تعتقد انه ليس لدينا عملا غير ذلك ؟

كان قد انتهى من اصلاح الخلل فدعانى بأشارة الى الصعود ثم انطلقت العربة من جديد

كان الجواد يجاهد في إرتقاء المرتفعات يتعثر ويكبو في المنحدرات ويعدو في السهل عدوا مخيفا وفي بعض الاحيان كان يتوقف فجأة ٠ حدثت نفسى قائلا " على هذا النحو الذى نسير به سنصل الى الكارفور بع ان يكون اهل القصر قد فرغوا من تناول طعامهم وحتى بعد ان يكونوا قد ناموا " فقد توقف الجواد مرة اخرى وبدأ مزاجى ينحرف ٠حاولت ان ارى البلدة واذا بالعربة تنحرف دون ان الاحظ عن الطريق الرئيسى وتسلك طريقا اخر اكثر ضيقا واقل تمهيدا لم تكن مصابيح العربة تضىء يمينا ويسارا فيما عدا سياجا متصلا مرتفعا وكثيفا كان يحاصرنا ويسد علينا السبيل يفسح الطريق في لحظة ثم لا يلب ثان يطبق من جديدي بعد عبورنا

مان بلغت العربة ربوة وعرة حتى توقفت من جديد إقترب الحوذى من الباب وفتحة ثم قال بكل بساطة :

هل يتكرم سيدى بالمزول ؟ المطلع وعر بعض الشىء على الجواد

وصعد بنفسه المطلع ممسكا بزمام الجواد وفي منتصف المسافة التفت نحوى وكنت اسير وراءه وقال بنبرة رقيقة :

وصلنا بسرعة انظر هاهى الحديقة

استطعت ان اميز دغلا كثيفا من الاشجار كان يشكل طريقا تحفة اشجار الزان الضخمة سرعان ماخضنا فيه فلقينا الطريق الاول الذى كنا قد انحرفنا عنه دعانى الحوذى الى صعود العربة مرة اخرى وسرعان مابلغنا الباب الحديدى فتسللنا الى الحديقة ٠

كان الليل من السواد بحيث لم أستطع أن أبتين شيئا من واجهه القصر ٠ أوصلتنى العربة اما م سلم يتكون من ثلاث درجات إرتقيتها مبهورا من ضوء المشعل الذى كانت تحمله في يدها وتسلطة نحوى إمرأة خالية من معالم السن وملامح الجمال سمينة الجسم متواضعة الثياب حيتنى تحية مغعمة بالجفاء فانحنيت لها وقلت مترددا :

مدام فلوش بالطبع!

بل الانسة فيردور السيد فلوش وزوجتة نائمان ويعتذران عن عدم حضورهما لاستقبالك فالناس هنا يتناولون عشاءهم مبكرا

وأنت ياآنستى هل جعلتك تسهرين حتى ساعة متأخرة ؟

قالت دون أن تلتفت الى :

آوه ! أما انا فقد أعتدت ذلك

كانت قد سبقتنى الى الممر فقالت :

اعتقد أنك لاتمانع في تناول شىء ما !

الحق أنى لم أتناول عشائى

أدخلتنى حجرة طعام شاسعة أعدت فيها وجبة عشاء دسمة مثل تلك الوجبات التى تعقب الصوم

الفرن مطفأ في هذا الوقت وفي الريف على الانسان ان يقنع بما يجده

قلت وأنا أجلس الى المائدة اما م صحن من اللحم البارد :

لكنى اجد ان هذا عظيما

جلست منحرفة على مقعد بالقرب من الباب وطوال تناولى الطعام ظلت خافضى الراس وحاولت مرات كلما انقطع خيط الحديث أن اعتذر لها عن اسبقائى لها الى جوارى ولكنها جعلتنى ادرك أنها تنتظر حتى انتهى من عشائى لترفع المائدة٠

لو إنصرفت أنا فكيف ستعرف حجرتك ؟

تعجلت وأكلت بسرعة واذ بباب الممر يفتح ويدخل منه قس أشيب الشعر صارم الوجه لكنه لطيف اقبل نحوى وهو يمد يده قائلا :

لم أشأ أن ارجىء الى الغد الاستمتاع بتحية ضيفنا ولم انزل اليك قبل الان لاننى كنت اعلم انك تتبادل الحديث مع الانسة أوليمب فيردور

قال ذلك وهو يوجه اليها ابتسامة خبيثة بينما كانت هى تزم شفتيها وتبدى سحنة خشنة واستطرد يقول بينما كنت اغادر المائدة

الان وقد انتهيت من طعامك فستترك الانسة اوليمب هنا لتعيد النظام الى المكان ٠ واعتقد انها ترى من الاليق ان تكل الى رجل امر اصطحاب السيد لاكاز الى حجرة نومه وأن تتنازل عن مهام وظيفتها في هذا الشأن ٠

إنحنى امامها بإحترام متكلف فحيته بطريقة مقتضبة :

- أوه ! أتنازل لك ياسيدى القس انا كما تعلم أتنازل دائما ٠٠
ثم استطردت وقد عادت الينا فجأة :
كنت ستنسينى أن اسال سيدى لاكاز عما يتناوله في الافطار
ماتشائن يالنستى ٠٠ ماذا تتناولون هنا عادة؟

كل شىء ٠٠ اعد الشاى للسيدات والقهوة للسيد فلوش والحساء لسيدى القس ومشروب خاص للسيد كازيمير

وانت يالنستى الا تتناولين شيئا ؟

أوه انا أتناول القهوة باللبن فحسب

لو سمحت سأتناول معك قهوة باللبن

فقال القس وهو يمسك ذراعى :

هيه ! هيه ! حاذرى يأنسة فيرودور يبدو لى ان السيد لاكاز يغازلك !

هزت كتفيها ثم حيتنى تحية سريعة بينما القس يسحبنى معه

كانت حجرتى تقع في الطابق الاول في نهاية الممر

قال القس وهو يفتح باب حجرة كبيرة تضيئها نار المدفأة :

عفوك اللهم وغفرانك لقد اوقدوا لك نارا ٠٠٠ ربما تكون في غنى عنها ٠٠ صحيح ان الليل في هذه البلدة يكون رطبا وفصل الشتاء هذا العام غير عادى

كان قد إقترب من المدفأة فمد لها راحتيه العريضتين محولا وجهه عنها ٠٠ وكأنه عابد يدفع عن نفسه محاولات الاغراء وكان استعداده للحديث يبدو لى اكثر من استعداده لتركى لكى انام ٠

بدأ جديثه قائلا وقد رأى صندوقى وحقيبتى :

آه احضر لك جراسيان امتعتك

سألته قائلا:

جراسيان هو ذلك الحوذى الذى صحبنى ؟

وهو أيضا البستانى لأن أعماله كحوذى قلما تشغل وقته

أخبرنى بالفعل أن العربة لاتخرج كثيرا

خروجها يعتبر حدثا تاريخيا ٠ثم ان السيد دسانت أوريول لم يعد يملك جيادا منذ زمن بعيد ولذلك ففي المناسبات الكبرى مثل الليله نستعير جواد المزارع فرددت مندهشا :

السيد دسانت أوريول ؟

أجل أعرف أنك جئت للقاء السيد فلوش ولكن قصر الكارفوش ملك لشقيق زوجته وغدا ستتشرف بمعرفة السيد دسانت أوريول وزوجته

ومن هو السيد كازيمير الذى لا أعرف عنه غير أنه يتناول مشروبا خاصا في الصباح ؟

حقيدهما وتلميذى ٠شاء الله أن أقوم بتعليمه منذ ثلاث سنوات

قالها وهو يغمض عينيه في خشوع وكأن الامر يتعلق بأجر من أختك فيفيل

سألته قائلا :

أبواه هنا ؟

لا علي سفر

ضغط على شفتيه بقوة ثم قال من فوره

أنا أعرف ياسيدى أى دراسات نبيلة مقدسة جاءت بك

قاطعته من فورى

أوه ! لا تبالغ في قدسيتها إنها لاتهمنى الا من وجهة نظر المؤرخ

قال وهو يبعد بيده كل فكرة غير طيبة :

لايهم للتاريخ ايضا حقوقه سبجد في السيدة فلوش أرق مرشد واكبر دليل

هذا ما أكده لى استاذى السيد دينوش

أه أو أنت تلميذ البير دينوش ؟

ضغط على شفتيه من جديد تجر أت ووجهت اليه هذا السؤال :

هل درست على يديه ؟

رد بجفاء :

- كلا ما اعرفه عنه جعلنى التزم الحذر .. انه مغامر فكرى وفي مثل سنك ينجذب المرء بسهوله لما يشذ
عن المألوف ولما لم أجب بشىء قال :

- كان لنظرياته بعض التأثير على الشباب ولكن الناس بدأوا يفيقون منها مثلما بلغنى
كانت رغبتى في الجدال اقل من رغبتى في النعاس ولما وجد انه لن يحصل منى على اجابة إستطرد قائلا :

- سيكون السيد فلوش خير ناصح لك . ثم قال بعدتثاءب لم أملك اخفائه :

- الوقت متأخر غدا لو أردت يمكننا أن نجد وقتا كافيا لاستئناف الحديث فلابد أنك مرهق بعد هذا السفر

- الحق ياسيدى القس ان النعاس يهدنى .

ما ان غادر الحجرة حتى رفعت الحطب من المدفأة وفتحت النافذة على مصراعيها الخشبيين فاذا بهبه ريح خفيفة تراقص لهب شمعتى فأطفأتها لى أتأمل الليل كانت حجرتى تفضى الى الحديقة ولكنها لاتطل على واجهه القصر شأن حجرات الممر الست وأنها تتمتع بمظر يمتد فيه مدى البصر أطول وأبعد . سرعان ما أوقف نظرتى مجموعة من الاشجار لا يكاد يظهر فوقها الا جانب ضئيل من صفحة السماء كان الهلال قد لاح فيها منذ قليل ثم لم يلبث أن غاب تحت الغمام .كانت السماء قد أمطرت من جديد وكانت الاغصان لاتزال تقطر ماء .

حدثت نفسى وأنا أعيد غلق النوافذ :

- هذا جو لايدعو للبهجة .

اما هذا التأمل الخاطف سرت الرعدة في نفسى اكثر مما سرت في جسدى فأعدت الحطب الى المدفأة وازكيت النار وسعدت عندما عثرت في فراشى على جرة ماء دافىء لاشك أن الانسة فيردور دستها فيه بحس رعايتها وعنايتها .

بعد برهة لاحظت انى نسيت وضع حذائى خارج الحجرة فنهضت وخرجت للحظة الى الممر رأيت في الطرف الاخر من الدار الانسة فيردور كانت حجرتها تقع فوق حجرتى تبينت ذلك من خطواتها الثقيلة التى شرعت بعد قليل تزلزل السقف من فوقى ثم اطبق صمت عميق وبينما كنت استغرق في النوم رفعت الدار مرساتها لتجتاز رحلة الليل البحرية ٠

(٢)

إستيقظت مبكرا على صوت ضوضاء صادرة من المطبخ وكان أحد ابوابه يفتح على نافذتى مباشرة ٠ وعندما دفعت مصراعى النافذة سعدت برؤية سماء صافية أما الحديقة التى لم تكن قد جفت تماما من أثار وابل مطر حديث فكانت تتلألأ بينما يميل الجو الى الزرقة ٠وعندما هممت بأغلاق النافذة اذا بى أرى طفلا ضخما يخرج من بستان الخضراوات ويهرول نحو المطبخ كان من العسير بحديد عمره لان وجهه يبدو اكثر من جسمه بثلاث او اربع سنوات ٠كان مشوها معوجا وساقاه الملتويتان تجعل مشيته غريبة فهو يتقدم بانحراف او يسير قفزا كأنما تلتوى ساقاه كلما سار خطوة ٠٠ كان هو كازيمير تلميذ القس وكان يلازمه كلب ضخم يثب معه ويحتفل به كان الصبى يحاول ان يحمى نفسه من مغبة هوسة الكلب المربكة ولكنه ما ان كان يبلغ المطبخ حتى اوقعه الكبل فهوى في الوحل ٠وهنا هبت اليه سيدة بدينة قامت بأنهاضه وهى تقول :

آه هل يرضى اللهعما تصنعه بنفسك !٠٠ وكم نصحناك بترك ترنوفي العربة٠٠ هيا ! تعال من هنا لكى أنظفك ٠

وسحبته الى المطبخ في هذه اللحظة سمعت طرقا على باب حجرتى خادمة تحمل ماء ساخنا للاغتسال بعد ربع ساعة رن الجرس معلنا موعد الفطور وعندما دخلت حجرة الطعام قال القس وهو يتقدم نحوى :

- مدام فلوش أعتقد أن ضيفنا الطيب قد وصل

كانت مدام فلوش تنهض من مقعدها ولكنها لم تبدو أطول منها وهى جالسة إنحنيت أمامها بشدة فحيتنى بشكل خاطف ربما تكون قد تلقت في فترة من حياتها ضربة قوية فوق رأسها فظل الرأس غائرا بين كتفيها بطريقة لاتعالج وكان السيد فلوش قد وقف الى جوارها مادا يده مرحبا بى ٠كان العجوزان متماثلين في الطول والملبس والسن والجسم ٠٠ ظللنا لحظات نتبادل التحيات والمجاملات المتشابهة ونتحدث في وقت واحد ثم ساد صمت رهيب عندما وصلت الانسة فيردور تحمل إبريق الشاى

قالت مدام فلوش التى لم تستطع ان تدير رأسها فتوجهت الينا بكل نصفها العلوى :

- صديقتنا الانسة أوليمب كانت تتحرق لتعرف هل هنئت في نومك وهل أراحك الفراش

- فأجبت بأننى نمت هانئا حقا وأن جرة الماء الدافىء التى وحدتها في الفراش أفادتنى كثيرا
خرجت الانسة فيردور بعد أن قدمت لى التحية :

- في الصباح الم تزعجك ضوضاء المطبخ ؟
كررت النفى فقالت مدام فلوش :

- يجب ان تقدم شكواك أرجوك لان مامن أمر أسهل علينا من ا، نعد لك كحجرة أخرى ..
ودون أن يقول السيد فلوش كلمة كان يهز رأسة بأنحراف ويؤيد بأبتسامة كل عبارة تتفوه بها زوجته

فقلت "

- أننى أرى جيدا أن الدار رحبة ولكننى أؤكد لكم أننى لايمكن أن القى مقاما خيرا من مقامى هنا
- قال القس :
- السيد فلوش وزوجته يحبان تدليل ضيفهما
جاءت الانسة أوليمب بصمحبن خبز مقدد فدفعت أمامها ذلك الكائن الذى كنت قد رأيته ينقلب على رأسة منذ قليل جذبه القس من ذراعه قائلا :

- هيا ياكازيمير أنت لم تعد طفلا صغيرا تقدم لتحية السيد لاكاز كما يفعل الرجال مد يدك أنظر أمامك . التفت القس نحوى وقال كأنه يجد له العذر :
- لم نألف بعد عادات المجتمع
احرجنى حياء الطفل فسأت مدام فلوش متجاهلا المعلومات التى أمدنى بها القس بالامس :

- أهو حفيدك؟
اجابت قائلة :
- حفيد شقيقتى .. سترى فيما بعد شقيقتى وزوجها أى جديه
حاولت الانسة فيردور أن تفسر موقف الطفل فقالت :

- لم يكن يجرؤ على العودة لانه كان قد لوث ثيابه بالوحل وهو يلعب مع تيرنو

فقلت وأنا التفت نحو كازيمير ببشاشة وود :

- ما الطفه من لعب كنت أنظر من النافذة عندما اوقعك الكلب ... أو لم يصبك بسوء ؟
قال القس موضحا بدوره :

- يجب أن نخبر السيد لاكاز أن الطفل لايجيد الاتزان تماما

ياإلهى لقد لاحظت ذلك بنفسى دون حاجة اى توضيح وفجأة أصبح هذا القس الضخم ذو العينين المختلفتين اللون بغيضا الى نفسى ٠

لم يجب الطفل على سؤالى غير ان وجهه أحمر خجلا ٠ندمت على سؤالى فربما يكون قد حمل تلميحا الى عاهته ٠كان القس قد غادر المائدة بعد أن فرغ من تناول حسائه فاخذ يذرع الحجرة ذهابا وإيابا وكان عندما يمسك عن الكلام يضغط على شفتيه بحيث تصبح شفتيه العليا نتوءا اشبه بشفه الكهل الأدرم ٠٠ توقف خلف كازيمير بينما كان الاخير يفرغ قدحة قال القس :

- هيا هيا ٠٠ أيها الفتى إبن زهير في انتظارنا ٠٠ فنهض الفتى وخرج الاثنان وما أن إنتهى الفطور حتى بادرنى السيد فلوش بقوله :

- تعال معى الى الحديقة أيها الضيف الشاب لتزدنى من أخبار باريس
كانت لغة السيد فلوش تزدهر مع الفجر ودون أن ينصت كثيرا الى أجاباتى أخذ يسألنى عن صديقه جاستون وعن دراساتى ٠٠ لم أحدثة الا عن مشروعاتى الادبية بالطبع ولم أكشف له عن نفسى الا الجانب الخاص بالسوربون ثم شرع يقص تاريخ الكارفورش الذى لم يبرحه تقريبا منذ خمسة عشر عاما وتاريخ الحديقة وتاريخ القصر وأرجأ الى حين تاريخ الاسرة التى كانت تسكن القصر قبله ولكنه بدأ يروى لى كيف حصل على مخطوطات القرية الثامن عشر التى يمكن ان تهمنى في بحثى ٠٠ كان يسير الى جوارى في خطى قصيرة مسرعة ولاحظت أن سرواله منخفض بحيث يكاد يسقط على قدمه ولكنه مرفوع من الخلف الى أعلى الحذاء ولا أدرى كيف استطاع ان يحافظ عليه في هذا الوضع لم أعد انصت اليه الا بأذان شاردة فكان تفكيرى خاملا من تأثير الجو الغائر ويفعل ماشبه التخدير النباتى وبينما كنا نسير على هذه الحال في طريق تحف به أشجار الكستناء العالية التى تشكل قبوا فوق رؤوسنا أدركنا اخر الحديقة ٠ وهناك وجدنا مقعدا يحميه من الشمس ساتر من الاشجار الظليلة فدعانى السيد فلوش الى الجلوس وقال فجأة :

- هل اخبرك القس سانتال بأن صهرى بهشىء من ال٠٠٠؟
لم يكمل ولمس جبهته بسبابته :

بلغ ذهولى حدا لم أجد معه ما أجيب به فاستطرد قائلا :

- نعم البارون دى سانت أوريول صهرى ربما لم يخبرك القس بذلك كما لم يخبرنى ولكنى أصبحت على علم بأنه يعتقد ذلك كما اعتقد ٠٠٠ وبالنسبة لى ألم يخبرك القس بأن بى شيئا من ال٠٠
- أوه سيدى فلوش كيف تظن أن ٠٠٠
فقال وهو يربت على يدى بلا كلفه:

- ولكن ياصديقى الشاب لو صح ظنى فأننى اجده شيئا طبيعيا ماذا تنتظر ؟ لقد إعتدنا هنا أن نعتزل العالم نكاد نكون بمنأى عما يجرى فيه لاشىء يحمل الينا ال ٠٠٠ التغيير كيف أعبر ؟ نعم لقد كنت لطيفا اذا جئت لزيارتنا ٠

فلما حاولت ان أتى بحركة عاد يقول :

- أعيدها ثانية كنت لطيفا اذا جئت وسأقول هذا المساء لصديقى القدير دينوس وقد يتراءى لك أن تطلعنى على مايجيش تصدرك من موضوعات وما يضطرب له فكرك من مسائل وما يستحوذ على إهتمامك من مشكلات ٠٠ أنا على ثقة أننى لن ادرك شيئا مما ستقول بماذا كنت أستطيع أن أجيب ؟ رحت أخط في الرمال بطرف عصاى فاستطرد يقول :

- كما ترى فقدنا إتصالنا بالعالم الخارجى تقريبا كلا كلا لاتعترض فلن يجدى ذلك شيئا ٠ البارون اضخم ولكنه مدعى بحيث يحاول أن يدارى صممه وهو يفضل أن يتظاهر بالسمع على أن يطلب من محدثه أن يرفع صونه ٠ أما بالنسبة لى فأننى فيما يتعلق بالافكار التى تشغل العالم اليوم فيبدو لى أننى لا اقل عنه صمما ومع كل فأننى لا أجد غضا ضة في ذلك بل لا أحاول أن أبذل مجهودا كبيرا حتى أفهم ٠إنتهى الامر بى من جراء عشرتى لما سيون ومسويه الى الاعتقاد بأن المشكلات التى كانت تؤرق هاتين العقليتين تعادل في جمالها واهميتها تلك المشكلات التى كنت شغوفا بها في مطلع شبابى ٠٠٠مشكلات ربما لم تكن تفهما هاتين العقليتين ٠٠ كما أننى لا أفهم تلك المشكلات التى تستهويك اليوم ٠لذلك لو تكرمت يازميل المستقبل فإننى أفضل أن تحدثنى عن دراستك مادامت هى أيضا دراستى ولاتؤاخذنى إذا لم أسألك عمن تحب من الموسيقيين والشعراء والخطباء ولا عن نظام الحكم الذى تفضله ٠

نظر الى ساعة مستديرة تتعلق بشريط أسود وقال وهو ينهض واقفا :

- فلنعد الآن إننى اعتبر نهارى ضائعا إن لم أباشر عملى في العاشرة فمددت له ذراعى فتناولها ! ولما كنت

أتمهل في سيرى أحيانا من أجله كان يقول :

- فلنسرع ! فلنسرع ! ما أشبه الأفكار بالازهار ٠٠٠ كانت مكتبة الكارفورش تتألف من حجرتين يفصل بينهما ستار بسيط وكانت إحداهما شديدة الضيق يصعد المرء اليها بواسطة ثلاث درجات وكان السيد فلوش يعمل فيها وهو يجلس الى مكتب أمام نافذة لاتطل على شىء بسبب وجود دردارة تمد أغصانها حتى تلامس زجاج النافذة ٠وكان يوجد على المكتب مصباح عتيق له خزان يعلوه غطاء اخضر منالخزف وتحت المكتب حشية لتدفئة القدمين ٠ وفي أحد الاركان موقد صغير وفي الركن الاخر مكت اخر محمل بالمعاجم وبينهما خزانه تستخدم كرف لحمل الاوراق أما الحجرة الثانية فقد كانت فسيحة بها كتب تغطى الجدار وتصل حتى السقف وكان بها نافذتان ومكتب كبير في الوسط قال لى السيد فلوئ

- هنا سيكون مقامك

فلما صحت معترضا قال :

- كلا ، كلا أنا إعتدت على الخلوة والحق أقول أننى أجد فيها راحتى بلا غضاضة واذا شئت أسدلنا الستار حتى لايضايق أحدنا صاحبه
- قلت معارضا : أوه ! ليس من اجلى أنا فاذا كنت اشعر حتى الان بضرورة الانفراد أثناء العمل فأننى لا
عقب مقاطعا :

- أيه حسنا ! سنتركه إذن مرفوعا ومن ناحيتى سأجد متعه كبيرة في أن المحك بطرف عينى
وبالفعل ما كنت أرفع رأسى عن عملى في الايام التالية الا والتقى بنظرة الرجل الطيب الذى يبتسم ى وهو يهز رأسة خشية أن يضايقنى أو يحول عينية عنى ويتظاهر بالانغماس في القراءة وسرعان ماأهتم فوضع تحت تصرفى كل ماأحتاجه من كتب وممخطوطات وكان معظمها موجودا على رف الحجرة الصغيرة وكانت تفوق في عددها وأهميتها ماذكره لى الاستاذ دينوش وكان لابد لى على الاقل مناسبوع كامل لكى أنقل اليانات القيمة التى اعثر عليها بين ثناياها واخيرا فتح السيد فلوش خزانة غاية في الصغر كانت بجوار اللرف واخرج منها نسخة الكتاب المقدس الشهيرة التى كان يملكها بوسويه والتى كان نسر مدينة موقد خط عليها امام الايات التى اصبحت متونا تواريخ القاء العظات التى اوحت له بها تلك الايات ٠٠٠ ودهشت لآن البير دينوش لم يستفد من هذهالبيانات في ابحاثه ٠٠٠ ولكنى علمت من السيد فلوش أنه لم يحصل على هذا الكتاب الا منذ وقت قصير

أستطرد قائلا :

- لقد كتبت فعلا مذكرة بشأنها وانى أهنى نفسى الآن لأنى لم أخبر أحدا بها فستفيدك في رسالتك بما فيه من جدة وطرافة
إعترضت مرة اخرى بقولى :

- كل ما لرسالتى من قيمة وفضل أدين به لفضلك فهل تتكرم ياسيد فلوش وتقبل منى أن أهديها لشخصك كدليل بسيط على عرفانى بالجميل ؟
ابتسم ابتسامة يشوبها الحزن :

- عندما يكون الانسان موشك على فراق الدنيا فأنه يبتسم راضيا تلك مايحقق له بعض الخلود
وجدت انه ليس من الذوق في شىء أن أتمادى في هذا الشأن وإذ به يستطرد بقوله :

- الآن ٠٠ عليك بالاستيلاء على المكتبة ولاتكثر ث بوجودى الا عندما تريد أن تستفسر منى عن شىء ٠خذما تحتاجة من اوراق ٠الى اللقاء ٠

وبينما كنت انظر اليه مبتسما وأنا اهبط الدرجات الثلاث اشار بيده قائلا :

- الى اللقاء !

فقلت الى الحجرة الكبيرة الاوراق التى تمثل باكورة عملى •وبدون أن ابتعد عن المكتب الذى كنت اجلس الية تمكنت من رؤية السيد فلوش في حجرته الصغرى وتحرك لحظات يفتح بعض الادراج ثم يغلقها من جديد ويخرج بعض الاوراق ثم يعيدها الى مكانها متظاهرا بالانشغال – وتبين لى حقا انه كان في غاية الاضطراب أو على الاقل محرجا بسبب وجودى فأن اقل خلل في تلك الحياة المنظمة غاية التنظيم يمكن أن يخل باتزان التفكير ••• واخيرا إستقر الى مكتبه وغاص حتى منتصف ساقية في الحشية ولم يعد يبدى حراكا •

بالنسبة لى كنت أتظاهر بالانهماك في العمل الا انى وجدت مشقة كبرى في السيطرة على تفكيرى •• بل لم أحاول ذلك فقد كان تفكيرى مركزا على الكارفورش وكأنه يحوم حول برج قصر محاولا اكتشاف مدخلة كل ماكنت احاول ان اقنع به نفسى هو انى فطن ذكى وكنت احدث نفسى قائلا :

صديقى ايها الروائى ستراك وانت امام التجربة الوصف **!**آه ، آه **!** ليس الوصف هو المهم الان وإنما المهم هو الكشف عن المخبر تحت المظهر • لو غفلت عن ايه حركة أو أيه أو لفته دون أن تجد لها التفسير انفسى والتاريخى الكامل فأنت لا تعرف مهنتك

نظرت نحو السيد فلوش وكان يعرض لى من جانب فرأيت أنفاضخما لايعبر عن شىء وحاجبين كثيفين وذقنا حليقا لايكف عن الحركة كان صاحبة يمضغ تبغا •• وفكرت في أن ما من شىء يضفى الغموض على وجه الانسان مثل قناع الطيبة الذى يغلفه

واذا بجرس الغداء يفاجئنى وأنا غارق في هذه الخواطر •

-٣-

على هذا الغذاء قدمنى السيد فلوش دون سابق انذار الى السيد سانت أوريول وزوجته • وكان في امكان القس أن يخطرنى بذلك مساء امس • وأتذكر اننى فيما مضى شعرت بنفس الدهشة عندما شاهدت لأول مرة في حديقة النباتات طائر النمام او طائر الغواص • ولا أعرف ايهما كان اكثر غرابة من الاخر البارون ام البارونة فهما زوجان متماثلان مثل السيد فلوش وزوجته • ولو قدر لهما أن يوضعا في أحد المتاحف • لوضعا متجاورين بلا تردد حلف واجهة زجاجية قريبا من " الانواع المنقرضة " شعرت نحوهما في البداية بأعجاب غامض من ذلك الذى نشعر به امام التحف الفنية الرائعة او امام عجائب الطبيعة والذى يتركنا للوهلة الاولى ذاهلين عاجزين عن تحليلة •ولم اتمكن كذلك من تحليل انطباعى الا بعد نظر وتأمل ••

كان البارون نرسي سدى سانت – أوريول يرتدى سروالا قصيرا وينتعل حذاء بأبزيم بارز ورباط عنق من مادة الموسيلين بينما تفاحى عنقة تماثل ذقنه في بروزها بحيث تخرج من فتحة الياقة محاولة التخفى تحت ثنايا وشاح منتفخ من الموسيلين هو الاخر وكان ذقنه عندما يتحرك فكه يبذل مجهودا كبيرا ليتصل بانفه الذى يحاول تحقيق ذلك وإحدى عينية كانت مسدودة تماما أما الاخرى فكان طرف الشفه يهفو اليها بينما تتجه

نحوها كل ثنايا الوجه فقد كانت تومض في صفاء قابعة خاف الوجنة كأنما تقول حذارى أنا وجيدة ولكن مامن شيء يفلت منى ٠

اما زوجته مدام دى سانت – أوريول فكانت تختفى تماما في فيض من نسيج الدانتيلا الزائفة وكانت يداها الطويلتان المثقلتان بالخواتم الضخمة ترتجفان وهما قابعتان في جوف كميها ٠ أما وجهها فقد كان متدثرا في شبه كساء طويل من الحرير الاسود المبطن بشرائط من الدانتيلا البيضاء تحت الذقن عقدت عصابتان من الحرير اكتسبتا اللون الابيض من أثر المسحوق المتساقط من وجهها الذى اسرفت في ذره بطريقة فظيعة ٠ وعندما دخلت نهضت واستقرت امامى بجانبها وطرحت رأسها الى الوراء ثم نطقت بصوت مرتفع خال من النتغيم :

- جاء زمن ياشقيقتى كان الناس فيه اكثر احتراما وتقديرا لإسم سانت – أوريول ٠ على ساخطة على من ؟٠٠٠ لابد وانها تريد أن تشعرنى امام شقيقتها أننى لا أقيم عند ال فلوش لانها واصلت وهما تميل برأسها جانبا في لطف واضح وترفع يميناها تحدى قائلة :

- يسر البارون كما يسرنى أن نستقبلك ياسيدى على مائدتنا طبعت قبلة على خاتم بيدها ووقفت بعد القبلة وأنا أشعر بالخجل لأن وضعى بين آل فلوش وآل سانت – أوريول بدا محرجا ٠ الا أن مدام فلوش لم يبد انها اعارت قول شقيقها اى اهتمام أما البارون فكنت أرتاب في حقيقة أمره على الرغم من انه كان لطيفا معى ٠ وطول اقامتى في الكارفورش لم يستطع احد أن يقنعه بأن ينادينى بغير السيد لاسى كازه الامر الذى كان يتيح له ان يؤكد انه طالما رأى أهلى في النويلورى وبخاصة عمى الذى كان يلعب معه لعبة الورق ٠

- آه ! كان ظريفا ! كان كلما القى بورقة رابحة صاح بأعلى صوبه دومينو !
أحاديث البارون كانت كلها على هذا المستوى تقريبا ٠٠٠ وعلى المائدة كان هو الوحيد الذى يتحدث وبعدها وما ان ترفع المائدة كان يخلد الى الصمت الشبيه بصمت المومياء ٠٠٠ وعندما غادرنا حجرة الطعام إقتربت منى مدام فلوش وهى تهمس قائله :

- هل يسمح لى السيد لاكاز بحديث قصير ؟
فبدا لى أنها لم تكن ترغب في أن سستمع أحد الى هذا الحديث لانها جذبتنى الى ناحية بستان الخضراوات وهى تقول بصوت مرتفع أنها تريد أن ترينى صفا من الاشجار المعروشة على الجدار ٠
ما أن تأكدت أن أحدا لايسمعها بدأت حديثها قائلة :
- حديثى معك خاص بحفيدنا ٠٠ أنا لا أريد أن أبدو في نظرك منتقدة لتعليم القس سانتال ولكنك وأنت تغوص في مصادر الثقافة نفسها (هكذا قالت) يمكنك أن تقدم لنا النصح في هذا الشأن ٠
- قولى ياسيدتى ٠٠ وثقى في إخلاصى ٠

- إذن اسمع اخشى ان يكون موضوع رسالته
بالنسبة لصبى مثله له شىء من التخصص ٠

إستفسرت بشىء من الحرج :

- أيه رالة ؟
- الرسالة التى يتقدم بها لشهادة البكالوريا
عدت أقول وقد آثرت الا أندهش لشىء :

- آه ! بالضبط ٠٠ وماموضوعها ؟
- هو هذا ٠٠ الاب يخشى أن يكون من شأن الموضوعات الادبية أو الفلسفية البحتة أن تزيد من حدة هيام عقلية صبى يميل بطبعه للاحلام ٠٠ هذا جانب من مخاوف الصبى ولذلك فقد حدا بكازمير الى اختيار موضوع تاريخى ٠
- ولكن هذا الرأى ياسيدتى يقوم على اساس قوى والموضوع الذى وقع عليه الاختيار ؟ ماهو ؟
- أرجو المعذرة فأنا أخشى أن أحرف الاسم: أبن رشد "
- القس طبعا لديه من الأسباب ماجعله يختار هذا الموضوع الذى يبدو لأول وهله موضوعا متخصصا بعض الشىء
- إختاراه معا ٠ أما عن الاسباب التى يذكرها القس ليبرر الموضوع يتضمن جاذبية قصيصته من شأنها أن تثير إهتمام كازيمير الذى يشرد كثيرا ثم يبدو أن السادة الممتحنين يعلقون على هذا أهمية كبيرة فالموضوع لم يسبق أن تناوله احد من قبل
- فعلا –
- طبعى أنالمرء لكى يطرق موضوعا لم يسبق لغيره أن تناوله يجد نفسه مضطرا الى الخوض في طرق غير ممهدة
- طبعا
- الا أنى أعترف بأن هناك مايدعو للقلق ولكنى لن أكون مغالية !
- سيدتى أتوسل اليك أن تثقى في أن أصدق إخلاص ورغبتى في خدمتك لاحدود لهما
- حسن ! لا أشك في أن كازيمير لديه من الكفاءة ما يؤهله في القريب من التفوق في إمتحان رسالته ولكنى أخشى أن تكون رغبة القس في التخصص وهى رغبة سابقة لأوانها تجعله يهمل الى حد ما الثقافة العامة كالحساب والفلك على سبيل المثال ٠٠
فسألت وأنا في ذهول :

- وما رأى السيد فلوش في كل ذلك ؟
- آوه ! السيد فلوش يؤيد كل مايفعل القس أو يقول ٠
- والوالدان ؟
- لقد عهدا الينا بالصبى

قالتها بعد تردد ما ثم أضافت وقد توقفت عن السير :

أرجوك ياسيد لاكاز أن تتكرم بالحديث الى كازيمير لكى تطلع على أمره دون أن يبدو أنك تقصد ذلك ٠٠

وليكن في غير وجود القس فقد يرتاب في الأمر وأنا على ثقة أن بوسعك ٠٠٠

- بكل سرور ياسيدتى ٠٠ لن أعدم الوسيلة لاختلاق سبب للخروج مع الحفيد ٠ سيقوم مثلا باصطحابى في زيارة لركن ما من أركان الحديقة ٠٠٠

- هو يبدو بداية خجلا مع من لايعرفهم الا أن الثقة من طبعه

- لاأشك في أننا لن نلبث أن نصبح صديقين حميمين

وبعد قليل جمعتنا وجبة العصر مرة أخرى فقالت تخاطب كازيمير :

- كازيمير عليك باصطحاب السيد لاكاز ليرى المحجر فأنا واثقة من أنه سيثسير إهتمامه

ثم قالت وهى تقترب منى :

- إنطلقا بسرعة قبل أن ينزل القس فقد يرغب في مرافقتكما وعلى الفور خرجت الى الحديقة يقودنى الصبى وهو يعرج فبدأت قائلا :

- هذا وقت الفسحة

فلم يجب فاستطردت قائلا :

- الا تفعل شيئا بعد تناول طعامالعصر ؟

- آوه : بلى ولكن اليوم لم يعد لدى ما انسخه

- وما الذى تنسخة ؟

- الرسالة

- آه !

وبعد محاولات من الاستفسار فهمتأن هذه الرسالة هى عمل خاص بالقس وهو يستغل الصبى في تبيضها ونسخها لوضوح خطه وسلامته ٠ وكان الصبى يقوم بكتابة أربع نسخ من الرسالةفي أربع كراسات مغلفة يملأ منها كل يوم بضع صفحات ٠ الا أن كازيمير أكد لى أنه يجد متعته في قيامه بعملية النسخ ٠

- ولكن لماذا تكتب أربع نسخ ؟

- لأنى أجد مشقة في الآستظهار

- وهل تفهم ما تكتبه؟

- احيانا ،واحيانا اخري يشرح لي القس او يقول انني سوف افهم عندما اكبر .

كان القس بكل بساطة قد جعل من تلميذه ما يشبه سكرتيرا ناسخا ، فهل كان هذا هو تصدره لو اجبه؟ شوت بقلبي يفيض حسره ،فقررت بلا تردد ان ادخل معه في نقاش مرير ،وكان سخطي قد جعلني اسرع الخطئ علي غير وعي مني ،فكان كازيمير يجد

مشقة في متابعته ،ولا حظت انه غارق في عرقه ، فممدت له يدي فاستبقاها في يده ،وراح يوج الي جانبي بينما ابطات انا من مشيتي .

- هل الرساله رسالتك؟

فاجاب من فوره :

- اوه ! كلا.

ولكن عندما تماديت في اسئلتي ادركت قلة معلوماته ،وولا شك في انه لاحظ دهشتي ،فاضاف قوله:

-اقرا كثيرا.

قال كمسكين يقول:انا املك ثيابا اخري!

- وماذا تحب ان تقرا؟

- كتب الرحلات.

حول تحدي نظرة مسكونة بالثقة بدلا من الحيرة وقال:

- سافر القس الي الصين ، هل تعرف ذلك؟

كانت لجنة تكشف عن اعجاب باستاذه ، واحترام زائد له.

بلغنا المكان الذي اسمته مدام فلوس "المحجر" ، فوجدته مكانا مهجورا منذ زمن طويل ، اشبه بمغارة تحف بها احراس تحجبك عن الانظار . فجلسنا فوق حجر فاتر بتاثير حرارة الشمس التي كانت قد شرعت في المفيب . وكانت الحديقة تنتهي عند هذا المكان دون ان يحدها سياج او جدار، وكنا قد مررنا يسارا بطريق منحدر بانحراف يقطعون حاجز صغير . وكان انحدار الطريق من الشدة بحيث كان حماية طبيعية للحديقة .

سألت كازيمير !

- وانت يا كازيمير ، هل سبق وان قمت برحلات ؟

لم يجب ، وطأطأ رأسه .. كان الوادي غارقا في الظلام تحت اقدامنا ، وكانت الشمس تحف بالتل الذي يحول دون استرسال الطبيعة امامنا . كانت توجد اشجار كستناء وبلوط تعلو كلا جيريا صغيرا انتشرت فيه اوكار الارانب . كان المنظار رومانسيا يتميز عن سائر المنطقة المتسمة بالرتابة .

وفجأة صاح كازيمير :

- انظر الي الارانب .

وبعد برهة ، اضاف وهو يشير باصبعه الي الاشجار :

- ذات يوم ، صعدت بصحبة سيدي القس .

وعند عودتنا ، مررنا ببركة تغطية النباتات المائية ، فوعدت كازيمير بأن اعد له سنارة لكي ادربه علي صيد الضفادع . هذه السهرة الاولي لم تختلف عما تلاها وان لم تمتد بعد التاسعة ، ولا حتي عما سبقوة: لان اصحاب الدار كانوا يراعون مبدأ عدم الاسراف ، في اثناء العشاء يشعل النار في الموقد . وكان يوجد مصباح كبير علي طرف منضدة من الخشب المطعم ، يضئ القطاع الذي يتناقل فيه كل من البارون والقس ، كذلك كان هذا

المصباح يضئ المائدة الصغيرة المستديرة التي كانت النساء يلعبن عليها لعبة الدورق .
وبأت مدام دي سانت –اوريول الحديث فقالت :
- السيد لاكاز الذي اعتاد له باريس ومسراته ، سيجد ولا شك في لهونا شيئا من الخمول .
كان السيد فلوس يجلس في مقعد وثير في احد اركان المدفأة ، بين النوم واليقظة . اما كازيمير ، فقد كان يسند مرفقيه الي المنضده ، واضعا راسه بين يديه ، وقد تدلت شفته السفلي وسال منها اللعاب . وعلي هذه الحال ، كان يقرأ في كتاب "جولة حول العالم " .
تظاهرت مراعاة للياقة والذوق بالاهتمام البالغ بلعبة النساء . وكان من الممكن ان يتم اللعب بالاستغناء عن احد الاعبين الاربعة كما يحدث في لعبة"الوست" الا انه من الافضل ان تؤدي بأربعة لاعبين . ولذلك فما ان اقترحت الاشتراك في اللعب ، حتي سارعت مدام دي سانت- اريول بقبولي زميل لها . وفي الامسيات الاولي تمكن الفريق المنافس من هزيمتنا ، فسعدت مدام فلوس ، وكانت بعد كل فوز تربت علي ذراعي بيدها النحيلة المكسورة بقفاز بلا اصابع . وكان يسود اللعب الكثير من حركات التهور والجرأة واعمال المكر والدهاء والتفنن والمهارة . وكانت الانسة اوليمب مترثية في لعبها ومتروية .
وفي بداية كل دور كنا نحدد النقاط الازمة لتحقيق الفوز ، وبعد ذلك كان كل لاعب يقام ويزايد حسبما يكون تحت يده من اوراق ، مما يتيح فرصة للتغرير والايهام . وكانت مدام دي سانت- اوريول تغام في تهور وجرأة وقد لمعت عيناها ، واحمرت وجنتاها وارتعد زقنها ،وعندما كانت تجد بين يديها اوراق رابحة ، وكانت تركلني بقدميها من تحت المنضدة ، وكانت الانسة اوليمب تحاول ان تصمدا امامها ، ولكنها لا تلبث ان ترتبك عندما تمع صوت العجوز الحاد يصيح فجأة:
- فيرودور ، انت تكذبين .
عند انتهاء الدور الاول اخرجت مدام فلوس ساعتها ، وكأن الوقت قد حان . ثم نادت قائلة:
- كازيمير ، هيا ، حان الوقت.
فيحاول الصبي في مشقة ان يقاوم نعاسة وينهض ، ويقدم للرجال يدا مسترخية للتحية والسلام ، ويوحي جبينه للنساء ليتلاقي قبلاتهن ، ثم يخرج وهو يتعثر في مشيته .
وعندما كانت مدام دي سانت-اوريول تدعونا لجولة الثأر ، يكون اول دور علي وشك الانتهاء. كان السيد فلوس يأخذ احيانا مكان صهره ، ولم يكن السيد فلوس ولا القس يعلنان عن العابها ، ولا يسمع لها سوي صوت النرد داخل القرطاس او فوق المنضدة.
اما السيد دي سانت-اوريول فكان يناجي نفسه في مقعده الوثير، او يترغم بصوت منخفض ، الشظايا ، فتهب الانسة فيردور وتؤدي فوق البساط واما كانت مدام دي سانت-اوريول تسميه برقصة الشظايا.
كان السيد دي سانت اوريول يترك البارون والقس في تنافسهما ولا يغادر مقعده الوثير، وكنت وانا في مكاني استطيع ان اراة، لايكون نائما كما يبدي، وانما هازا رأسه في الظلام . وفي اول امسيته حدث ان توهج اللهب فأضاء وجهه ، فتبنيت انه كان يبكي .

وعندما كان ينتهي اللعب في التاسعة والربع، كانت مدام فلوس تطفئ المصباح ، وتقدم الانسة فيردور باشعال شمعتيه تثبتهما علي طرف طاوله اللعب.
وكانت مدام دي سانت- اوريول وهي تضرب زوجها علي كتفه بالمروحة توصي القس قائلة:
- ايها القس، لاتجعله يسرف في السهر.
اعتقدت منذ الليلة الاولي انه من دواعي اللياقة تلبيه دعوة النساء تاركا اللاعبين لتنافسهما والسيد فلوس اتأمرته . وكان أخر من يصعد منا. وفي الدهليز حمل كل منا شمعدانا. وقامت النساء بتحيتي كما يفعلن في الصباح . كنت ادخل حجرتي فلا البث ان اسمع اليدين وهما يصعدان. ثم سرعان ما يطبق الصمت. الا ان النور يظل يتسرب من تحت الابواب . فاذا اضطرت للخروج الي عمر، فقد اصادف مدام فلوس او الانسة فيردور يفرغان من عمل ما. وبعد ذلك يظن المرء ان كل الاضواء اطفأت ، ولكنه كان يري طاقة من الزجاج تستمد نورها من ضوء الدهليز ولا تفضي اليد ، وبداخلا مدام دي سانت-اوريول في صدرهة خيال ظل وهي ترتق بعصي الثياب.

....

(٤)

يومي الثاني في الكارفورش كان شبيها باليوم الاول، بشكل واضح ، ساعة بساعة، الا ان الفضول الذي كان يدفعني الي الاطلاع علي حياة اهل البيت كان قد زال تماما . وكان ثمة رذاذ رقيق يملا الجو منذ الصباح . فلما استحالت النزهة، وكان حديث النساء يخلو من الدفء والمعني مع الوقت ، شغلت ساعات النهار كلها في العمل . لم اكد اتبادل مع القس بعصي العبارات ، وكان ذلك بعد الغذاء حيث دعاني الي تدخين سيجارة علي بعد خطوات من حجرة الجلوس في مكان يشبه مستودعا كان يطلق عليه أهل الدار تعظيما التويشة ، وكانوا يضعون فيه مقاعد الحديقة وكراسيها طوال فصل الشتاء الردئ .

وعندما طرقت موضوع تعليم الطفل في شئ من الحدة قال:

- ولكني يا سيدي ، استهدف شيئا اخر من تفتيح مدارك كازيمير، بكل ما املك من علوم متواضعة ، وانا لم اعدك عن هدفي في هذا الا مرغما.هل كنت تؤيدني، وهو يوج هكذا ، لو فكرت في ان اعلمه الرقص علي الحبل؟ سرعان ما وجدت ان من واجبي ان احد من امالي . واذا كان يشغل نفسه معي بابن رشد ، فلأنني اقوم ببحث في فلسفة ارسطو ، ففضلت ان اشركه معي في هذا العمل بدلا من ان اتهجي معه في كتاب من كتب النحو . وسواء كان هذا او ذاك ، فالمهم هو اشغال كازيمير ثلاث ساعات او اربع يوميا هل كان بوسعي ان اتجنب الشعور بالخط لو انه اضاع من وقتي هذه الساعات، دون ان يستفيد هو- كفي نقاشا في هذا الموضوع ، اعتقد. بعد ذلك القي سيجارته، وكان قد تركها حتي انطفأت. ونهض ليعود الي حجرة الجلوس.
منعتني رداءة الجو من الخروج مع كازيمير ، فاضطررنا الي ان نرجئ لليوم التالي ماكنا قد نوينا عليه في الصيد . ولكني اما خيبه امال الصبي، حاولت ان اقدم وسيله اقوي للتسليه. كنت قد عثرت علي رقعة للشطرنج ، وبدأت السهرة مثل سابقتها تماما، غير انني لم اعد انصت او انظر الي شئ، فكان يجثم علي صدر شئ من الضيق لا ادري كنهمه.
ما ان انتهينا من تناول العشاء ، حتي هبت ريح عاصفة ، فاوقفت الانسة فيردور اللعب مرتين، وصعدت الي الحجرات العليا لتري ما اذا كان المطر سيتسرب اليها. واضطررنا الي لعب دور الضأر بدونها ، الا ان اللعب كان يخلو من الاثارة .
كان السيد فلوس جالسا في مقعد وثير منخفض بالقرب من المدفأة يهدهده صوت المطر الهاطل ، فينام نوما عميقا . وكان البارون جالسا امامه في مقعده يشكو ويتالم من الروماتيزم.
ولما لم يجد القس منافسا يلا عبه، جعل يردد دعوته للبارون :
- سيضيع عليك دور من النرد.
ولما لم يصل معه الي نتيجه ، انصرف مصطحبا كازيمير ليرقده في فراشه ، وعندما وجدت نفسي وحيدا في ذلك المساء داخل غرفتي ، تملكني قلق لا يرحم استولي علي

روحي وجسدي، واذا يضيفي يتملكه الخوف. كان ثمة جدار من الانهار يفصل بيني وبين بقيه العالم، فا ذبي فريسة كابوس مزعج، بعيدا اعم كل عاطفة ، بعيدا عن الحياة، بين مخلوقات غريبة لا تكاد تكون من البشر ، جمدت قلوبها وبهتت وجوهها، وكفت قلوبها عن الخفقان منذ بعيد ، فتحت حقيبة السفر ، واخرجت دليل القطارات ، وابحث عن قطار، نهارا او ليلا ، ليحملني بعيدا . اني اختنق هنا.
عندما استيقظت في اليوم التالي ، لم اكن اقل تصميما ، الا اني وجدت منافيا القواعد الذوق واللياقة ، وان اترك المذيفين دون ان اقدم عذرا لسب قطع اقامتي.
او لأتهور واذكر لهم انني سأتأخر اسبوعا علي الاقل عن الكارفورش ! لقد وجدتها ! سأقول لهم ان انباء سيئة تستدعيني الي باريس.ولحسن الحظ ، كنت قد تركت عنواني في باريس قل المجئ، فكان من الزوق ان يرسل بريدي كله الي الكارفورش . قلت في نفسي انها حقا معجزة اذا لم يصل حتي اليوم اي خطاب استطيع استغلاله في مراره وحذفه.
علقت املي بوصول ساعي البريد.
كان يأتي بعد الظهر بقليل، عندما تفرغ من غذائنا- فكنا لانغادر المائدة قبل ان تأتي ديلفين حاملة الي مدام فوس رزمة خفيفة من الخطابات والمطبوعات فتتولي توزبون علي الحاضرين . ولسوء الحظ حدث في ذلك اليوم ، ان كان القس سانتال مدعوا لتناول الغذاء عند عمده بلدة ليفيك، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، جاء ليتأذن من مدام فلوس ومني، ولم ادرك انه كان يسلبني الجواد والعربة.
وعلي الغذاء ، قمت بأداء الدور الذي اعددت له ، فدمدمت وانا افض احد المظاريف التي قد متها لي مدام فلوش :
- يا الله ! ياك من مضايقة !
ولما لم يلتفت احد من اهل الدار الي صيحتي خشية احراجي ، عاودت رافعا صوتي ومتصنعا الدهشة والضيق بينها عيناي تجولان بين سطور رسالة لا اهميه لها:
- وا أسقاه!
واخيرا تجرات مدام فلوش وسألتني بلهجة يشوبها الحياء:
- ما هذا النبأ السئ يا سيدي العزيز!
اجبت من فوري:
- اوه! لا شئ . ولكني للاسف ان يتحتم علي ان اعو دالي باريس فورا ، وهذا ما يكدرني.
عمت الدهشة كل الجالسين الي المائدة ، فجاوزت ما كنت اتوقع حتي احمر وجهي خجلا، وتجلت هذه الدهشة بداية في وجوم شامل قطعة السيد فلوش في صوت تشوبه الرجفه:
- صحيح هذا يا صديقي العزيز؟ ولكن عملك ! ولكن...ولم يستطع ان يكمل ، ولم اجد ما اجيب به ولا ما اقوله ، بل انتابني شعور طفيف بالتأثر . وكانت عيناي مسلطتين علي قمرة رأس كازيمير، فرأيته وقد دس انفه في الطبق، وجعل يقطع تفاحة، اما الانسة فيردور فكان وجهها قد احمر قانيا من الغيظ.
واذا بمدام فلوش تقول بصوت منخفض:

- اعتقد ان ما ينافس الذوق يا سيدي ان تطلب منك البقاء.
فقالت له مدام دي سانت –اوريول بحدة:
- لما يقدمه الكارفورش من الوان اللهو و المتعة.
فحاولت الاعتراض قائلا:
- اوه يا سيدي، ثقي تماما ان ما من شئ...
غير ان البارونة، دون ان تنصت لقولي ، صرخت بأعلي صوتها في اذن زوجها. كان يجلس الي جوارها:
- السيد لاكاز يريد ان يرحل عنا.
فقال الاصم وهو يبتسم لي:
- عظيم ! عظيم! ما اكثر سروري لذلك.
عندئذ توجهت مدام فلوش بالحديث الي الانسة فيردور:
- كيف سنتصرف .. الجواد مع القس.
تراجعت قليلا وقالت :
- المهم ان اكون في باريس صباح غد .. واذا لزم الامر ، فان قطار الليل يكفي.
فقالت مدام فلوش:
- فلتذهب يا جراسيان فورا لتري اذا كان من الممكن ان نستخدم جواد ال بوليني واخبرهم ان عليك ان تنقل شخصا يريد ان يستقل
- قطار الساعة..
ثم قالت وهي تلتفت نحوي:
- هل يكفي قطار الساعة السابعة؟
- اوه! سيدتي، انا اسف اذا اسب لكم كل هذه المضايقات.
انتهي الغذاء في سكون ، وما ان فرغنا منه ، حتي صحبني السيد فلوش وخرجنا ، وعندما اصبحنا وحدنا في الممر الذي يؤدي الي المكتبة ، قال:
- سيدي العزيز ، صديقي العزيز ، لا استطيع ان اصدق ، ولكنك لا تزال في حاجة الي معرفة الكثير . هل من الممكن ان يحدث هذا ؟ياك من مضايقة ! ياك من مضايقة فظيعة!كنت انتظر ان تنتهي من المرحلة الاولي من البحث، لأضع تحت يدك اوراقا اخري اخرجتها مساء امس ، اعترف لك اني كنت اعتمد علي هذه الاوراق لأثير اهتمامك من جديد واستبقيك مدة اطول ، فلا بد من اطلاعك الان عليها، تعالي معي- لا يزال لديك الوقت حتي المساء ، لأني ا اجرؤ علي طلب العون مرة اخري ، اليسا كذلك؟ امام ضيق ودر الكهل، احسست بالخجل من تصرفي ، وكنت قد اضنيت نفسي في العمل طوال نهار امس وصباح اليوم ،بحيث لم يتوفر من الوقت الا ما يتيح ان القي نظرة عابرة علي الاوراق الاولي التي كان السيد فلوش قد اعطاني اياها . ولكن ما ان صعدنا الي خلوته حتي بادر يفتح احد الاوراج واخرج من داخله في حركه غامضة لفافة يغلفها نسيج من قماش يثبته خيط رفيع، وتحت الخيط دست بطاقة علي هيئة قائمة بالاوراق في الداخل ومصادرها، فقال:

- خذ اللفافة كلها ، وليست كل ما تحتويه بالطبع من اوراق هامة ولكنك تستطيع ان تستخرج من بينه ما يهمك بسرعة.
وبينما كان يفتح بعض الادراج الاخري ، ويغلقها ويتظاهر بالانشغال ، نزلت الي المكتبة حاملا حزمة من الاوراق التي فضضتها فوق المنضدة الكبيرة.
كانت بعض الاوراق فعلا تتصل ببحثي ، ولكنها كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن ، وكان اغلبها مكتوبا بخط السيد فلوش نفسه ومتصلا بحياة ماسيون ولذلك فلم تكن تعنيني في كثير.
اصحي حان فلوش المسكين كان يعتمد علي هذه الاوراق ليستبقيني؟
فنظرت اليه ، كان في ذلك الوقت قد غار في مقعده وامسك دبوسا يفتح به في دقة وصبر ثقوب وعاء صغير لصب السندروسي. وما ان فرغ من هذه العملية ، حتي رفع نظره فالتقي بنظري . واذا بابتسامة ودية تغير وجهه فنهضت لكي احادثه ، واتكأت علي ذراعي مقعده في مواجهة جسمه الضئي وقلت اخاطبه:
- سيدي فلوش ، لماذا لا تأتي الي باريس ؟ انه ليسرنا ان نلقاك هناك.
- في مثل عمري ، يكون الانتقال عسيرا او باهظ التكاليف .
- هل تأسف علي حياة المدينة؟
فقال وهو يرفع يديه:
- اه ! كنت اتوقع ان يكون اسفي عليها اكبر . ان الوحدة في الريف ، بتدر قاسية لمن يحب الحديث، ولكن سرعان ما يعتادها .
انت اذن لم تأت للاقامة في الكارفورش عن ميل او رغبة؟
قام من مقعدة ونهض واقفا ، ثم وضع يده فوق كمي في الفة وقال :
- كان لي في المعهد بعض الزملاء الذي اعتز بهم ، ومنهم استاذك البير دينوس، واعتقد اني كنت علي شك ان اشغل مكانا بينهم .
لاح لي ان يريد ان يفيض في الحديث ، ومع كل وقفه كنت لا اجرؤ علي سؤاله مباشرة ، وقلت:
- هل هي مدام فلوش التي كان يستهويها الريف الي هذا الحد؟
- كلا، ومع ذلك فقد جئت الي الريف من اجلك، اما هي فقد جذبها اليه طارئ عائلي بسيط.
كان قد هبط الي القاعدة الكبري ، فلمح اللفافة التي كنت قد اعدت ربطها فقال لي بأسي:
- اه! اطلعت علي كل شئ، وربمات وجدت بينها شيئا يفيدك.. وماذا كنت تريد ؟ انا التقط اقل الفتات.
في بعض الاحيان اقول لنفسي اني اضيع وقتي في جمع التافه من الاشياء.
ولكن لابد من وجود رجال مثلي ليوقروا علي من كان مثلك القيام بهذه الاعمال البسيطة التي يفيدون منها فائدة عظيمة . وعندما سأقرا رسالتك سأشعر بالسرور عندما اجد تعبي قد حقق لك لو جزء من الفائدة.
واذا بالجرس يدعونا لوجبة العصر.

كنت اقول لنفسي : ما السبيل الي موفة ذلك "الطارئ العائلي البسيط"
الذي كان وحده كافيا لاقناع هذين العجوزين ؟هل يعرفة القس؟
فيدلا من مناصبته العداء ، وكان ينبغي ان استميله . لايهم ، فات الاوان.ولا يمنع ان السيد فلوش رجل كريم النفس وسأظل احتفظ له بأعطر ذكري..
وصلنا الي حجرة الطعام.قالت مدام فلوش:
- كازيمير لا يجرؤ علي طلبك للخروج معه في جولة قصيرة في الحديقة، انا اعرف انه شديد الرغبة في ذلك، ولكن الوقت قد لايسعفه.
كان الصبي يغرق وجهه في اناء من اللبن ، فوقع هامته وهو بادي الابتهاج، فقلت:
- كنت علي وشك ان اقترح عليه ان يصحبيني ، فقد انتهيت من عماي وسأظل بلا مشاغل حتي يحين وقت الرحيل . ولحسن الحظ كان المطر قد كف عن الهطول.
صحيت الصبي الي الحديقة.
كان الصبي يمسكباحدي يدي بين يديه. وعند اول منعطف رفع يدي الي وجهه الملتهب واخذ يضغط عليها طويلا وقال:
- اخبرني انك ستمكث ثمانيه ايام.
- يا صغيري العزيز ، لا استطيع ان ابقي اطول من ذلك.
- مللت عشرتنا .
- كلا ، وكان لابد لي من الرحيل.
- الي اين؟
- الي باريس، وسوف اعود.
وماكدت انطق بهذه العبارة حتي نظر الي بقلق ولهفة:
- صحيح؟ هل تعد بذلك؟
كان استفسار الصبي يتضمن كثيرا من الثقة ، فلم توازنني الجاعة للتراجع ، وقلت:
- هل تحب ان اكتب لك هذا علي ورقة صغيرة تحتفظ بها؟
- اوة ! اجل!
قال وهو يقبل يدي بشدة ويقفز معبرا عن فرحته في هوس وجنون
- هل تعرف ما يحق لنا ان نفعله الان ، بدلا من الذهاب لصيد الاسماك؟ جدير بنا ان نقوم بقطف بعض الزهور لنقدم منها لعمتك، ونذهب اليها حاملين باقة ضخمة نفاجئها بها في حجرتها.

كنت قد نويت الا اغادر الكارفورش قبل ان ازور حجرة احدي العجوزين ، ولما كنتا تتجولان بلا انقطاع بين ارجاء الدار، كان من الجائز جدا ان تفاجئني احداهما في زيارتي المتطفلة ، فكنت اعتمد علي الغلام في ايجاد سبب لحضوري ، فاذا كان دخولي في اثر الصب الي حجرة جدته او خالته لا يبدو امرا طبيعيا، فانه يفضل باقة الزهور قد استطيع في حالة المفاجاة ان ابرر موقفي.
غير ان قطف الزهور في الكارفورش لم يكن عمليه بسيط كما كنت اعتقد ، فقد كان جراسيان يلاحظ الحديقة في تشدد وصرامة، ولم يكن يكتفي بارشاد الي الزهور التي

يمكن قطفها، بل كان يتدخل ايضا في تحديد الطريقة التي يتم بها قطف الزهور ، فلا بد من مراعاة الدقة والحذر، ولا بد من الحيطة كل الحيطة ! ذلك ما بينه لي كازيمير ، اقتادنا جراسيان الي حد من الزهور الداليا اللائقه، كان من الممكن ان نقطف منها عددا من الباقات دون اثار زهرة.

- من اعلي الغصن يا سيد كازيمير ، كم مرة ينبغي ان اكرر هذا ؟ اقطف دائما من اعلي الغصن .

صحت بعد ان نفذ ثبري:

- نحن في نهاية الموسم ، فلا ضرورة لذلك الان.

فأجاب مهمهما: ضرورة ذلك قائمة في كل وقت ، وان ما من موسم يحبز العمل السئ .

انا امقت المتحذلقين الذين لا يتحثون الا بالحكمة والمثل..

كان السكون يسود في حجرة الخالة اشبه بسكون المعبد.. وكانت مصاريع النوافذ مغلقة ، وكان يوجد بالقرب من الفراش مصلي من خشب الموجنا المبطن بالمخمل الاحمر الفائر، يعلوه صليب من العاج والابنوس يغطي نصفه عصن رفيع من البقس متعلق بشريط وردي مثبت تحت احدي ابطي الصليب. كل الشئ كان يوحي بالتعبد ، غنسيت ما جئت من اجله ، ونسيت الفضول الاجوف الذي جذبني الي هذا المكان ، فتركت كازيمير يرتب الزهور كما يحلو له فوق منضده صغيره ، واصبحت لا انظر الي شئ في الحجرة ، وكنت احدث نفسي قائلا " هنا فوق هذا الفراش، سرعان ما ستنطفئ شمعة مدام فلوش العجوز، بعيدا عن اعاصير الحياة ، ايها الشراع الذي يهفو الي العاصفة اما اهدأ هذا المرفأ !

كان كازيمير في هذه الاثناء قي مل ترتيب الزهور ، فقد كانت اغصان الداليا الثقيلة قد غلبته علي امره واذا بالباقة كلها تهدي علي الاض . واخيرا قال لي:

- هلا ساعتني؟

وبينما كنت اخذ مكانه ، اسر عالي الطرف الاخر من الحجرة نحو خزانة فتحها وهو يقول:

- سأعد لك الورقة التي تدون فيها العودة الينا.

فعقبت قائلا:

- هو ذاك ، هو ذاك ، اسرع ، فقد تغضب خالتك لو رأتك تنقب في خزانتها .

- اوه! خالتي مشغولة في المطبخ ، ولا تزجرني مطلقا .

وراح يكتب علي احدي اوراق الخطابات بكل دقة وعناية .

- والان تعال وقع .

فأقترب وقلت ضاحكا:

- ولكنك يا كازيمير ما كان ينبغي ان توقع بأسمك انت.

ما من شك في ان الصبي، رغبة منه في اضفاء الاهمية علي هذا التعهد؟

اعتقد ان من الافضل ان يوقع باسمه اسفل الورقة التي قرأت فيها

" يتعهد السيد لا كاز بالعودة الي الكارفورش في العام القادم . كازيمير دي سانت - اوريول ".
مكث برهة مرتبكا من ملاحظتي وضحكي . كان الصبي قد فعل ذلك مدفوعا بكل قلبه ، فهل كنت اهزأ به اذن؟! كان علي وشك البكاء.
- نهض، وعندما وقعت علي الورقة ، قفز فرحا، وانهال علي يدي لثما وتقبيلا . هممت بالانصراف ، فجذبني من كمي وهو مائل علي الخزانة:
- سأريك شيئا.
قال وهو يصلح زينكاف الخزانة ويسحب درجا كان يعرف طريقة فتحة .
وجعل ينقب بين شرائط وايصالات ، ثم قدم لي صورة صغيرة داخل
اطار وقال :
- انظر . اقتربت من النافذة .
- ماهذه الحكاية التي وقع فيها البطل في غرام الاميرة بمجرد ان راي صورتها ، لاشك ان هذه هي صورتها.
لا افهم في التصوير، ولا اهتم كثير بهذا الفن، الا انه من المؤكد ان خبيرا في التصوير يستطيع ان يتبين الصنعة في هذه الصورة ، فالشخصية لاتكاد تظهر من فرط ما في الصورة من جمال وروعة - علي ان هذا الجمال الطاهر كان من النوع الذي لايمكن للناظر ان ينساه ولا اهمية عندي ، لمحاسن التصوير او عيوبة . فالمرأة الشابه التي كانت امامي لم اكن اري منها سوي جانب من وجهها. كانت وجنتها تختفي تقريبا خلف خصلة ثقيلة سوداء ، وبدت عينها ناعسة حالمه في حزن ، ورايت ثغرها منفرجا كأنما يطلق الزفرات ، وجيدها دقيقا اشبه بغضن الورد – كانت هذه المرأة ذات حسن فتان وجمال ملائكي ، فلم اعد وانا اتأمل اعي شيئا عن المكان او الزمان ٠وكان كازيمير قد إبتعد عنى ليكمل ترتيب الزهور فعاد ومال نحوى قائلا :

- هذه أمى إنها جميلة اليست كذلك ؟
شعرت أمام الصبى بالحرج لأنى وجدت أمه على هذا القدر من الجمال

- أين هى الآن ؟
- لست أدرى
- لماذا لاتعيش هنا ؟
- تمل الاقامة هنا
- وأبوك ؟
اضطرب بعض الشىء وقال وهو يطأطأ الرأس كأنما يشعر بالخجل :

- أبى مات
كانت اسئلتى تضايقة ولكنى كنت قد صممت على التمادى فيها ٠

- هل تجيء أمك لزيارتك أحيانا ؟
فأجاب مؤكدا وهو يرفع هامته فجأة :

أوه ! أجل كثيرا ماتجيء

ثم أضاف وقد خفت صوته بعض الشيء

- تجيء وتتحدث مع خالتى
- ولكنها تتحدث معك أيضا
- أوه! معى أنا ٠٠ أنا لا أعرف كيف أتحدث معها ثم أنها تجيء وأنا نائم
- نائم !
- نعم تجيء ليلا
ثم أستسلم لثقته وإطمئنانه كان قد أمسك بيدى عندما وضعت الصورة وأضاف في حنان كأنما يعهد الى بسر
- أخر مرةجاءت وقبلتنى في فراشى
- اولا تقبلك عادة ؟
- بلى تقبلنى كثيرا
- إذن لماذا تقول " أخر مرة "؟
- لأنها كانت تبكى
- هل جاءت مع خالتك ؟
- كلا بل دخلت مفردها في ظلمه الليل وكانت تعتقد أنى نائم
- هل أيقظتك ؟
- أوه ! لم أكن نائما بل كنت في إنتظارها
- كنت تعلم إذن بوجودها
- طأطأ رأسه مرة أخرى دون أن يجيب فسألته بالحاح :
- كيف عرفت بوجودها ؟ وفي ظلمه الليل كيف عرفت أنها تبكى ؟
- أوه ! شعرت بذلك
- أولم تطلب منها البقاء معك ؟
- أوه ! بلى وكانت مائلة على الفراش فكنت أمسك بها من شعرها
- وماذا كانت تقول ؟
- كانت تضحك وكانت تقول أ،ى سأنكس شعرها وأنها لابد وأن تنصرف
- الا تحبك إذن ؟
- أوه ! بلى تحبنى كثيرا
صاح فجأة مبتعدا عنى وقد التهب وجهه في نبرة تنم عن الوله والحب حتى خجلت من سؤالى

واذ بصوت مدام فلوش يدوى عند سطح السلم مناديا :

- كازمير ، كازمير ! إذهب الى السيد لاكاز وأخبره بأن الوقت قد حان ليستعد للسفر فالعربه ستكون هنا بعد نصف ساعة ٠أندفعت ونزلت السلم مسرعا ولحقت بالعجوز في الدهليز سألتها :

- مدام فلوش ! هل يمكن أن أكلف احدا بحمل برقية ؟ لقد وجدت طريقة تتيح لى على ما أعتقد أن أبقى بينكم بضعة أيام أخر ٠ فتناولت كلتا يدى بين يدها :

- أوه ! حقا ياسيدى العزيز ؟

ولما كانت في غمار تأثرها وأنفعالها لاتجد ما تقوله جعلت تكرر قولها " حقا " ! ثم أسرعت نحو نافذة فلوش وصاحت قائلة :

- صديقى ، صديقى (هكذا كانت تنادية) السيد لاكاز تفضل بالبقاء كان صوتها الضعيف يرن كما جرس متصدع ولكنه بلغ هدفه فقد رأيت النافذة تفتح والسيد فلوش يطل منها للحظة ثم ما أن علم بالخبر حتى قال :

- أنا نازل ! أنا نازل ١

لحق كازيمير وظللت بضع لحظات أتقبل التهانى من كل فرد على حده وكان المشاهد يتيقن أنى أحد افراد العائلة

كتبت برقية وهمية وأرسلتها الى عنوان وهمى

قالت مدام فلوش :

- أخشى أن أكون قد اثقلت عليك في الالحاح اثناء الغذاء وأتعش مالا يعتبر بقاؤك هنا بأعمالك في باريس

- أتعشم ذلك ياسيدتى العزيزة لقد رجوت أحد الاصدقاء أن يعتنى بمصالحى

كانت مدام دى سان – أوريول قد أقبلت وكانت تهوى بمروحتها وهى تدور في الحجرة صائحة بصوتها الحاد :

- ياله من لطيف ! أه ! لطف فائق ٠٠٠ ياله من لطيف !

ثم غابت فأطبق السكون

قبل العشاء عاد القس من بون – ليفيك ولما لم يكن يدرى شيئا عن موضوع سفرى لم يفاجأ ببقائى وقال ببشاشة :

- سيدى لاكاز أحضرت من بون – ليفينيك بعض الصحف وأنا لا أهتم كثيرا بما تراهالصحف ولكنى تصورت أنك قد تكون محروما هنا من الاخبار وأن هذه الصحف قد تهمك

كان يبحث في ردائه

- أه ، حملها جراسيان مع الحقيبة الى حجرتى إنتظر لحظة فسأحضرها لك

- لاتفعل ذلك ياسيدى القس سأصعد لاحضارها

صحبته حتى حجرته فدعانى للدخول وبينما كان ينظف رداءة بفرشاة ويتهيأ للعشاء سألته بعد تبادل تعض المجاملة

- هل كنت تعرف اسرة سان – أوريول قبل أن تجىء الى الكارفورش ؟
- لا
- ولا السيد فلوش ؟
- أنتقلت من التبشير الى التعليم فجأة وكان رئيسى على صله بالسيد فلوش فعيننى للقيام بالمهام التى أباشرها الان فقبل أن أجىء الى هنا لم أكن أعرف تلميذى ولا والدية
- أى أنك لاتعرف الطارىء الذى دفع السيد فلوش فجأة الى مغادرة باريس منذ خمسة عشر عاما تقريبا عندما كان على وشك أن يعين بالمعهد
همهم قائلا :
- هذه تصاريف القدر
- كيف ؟ معنى هذا أن السيد فلوش وزوجته يعيشان هنا على نفقة أل سان – أوريول ؟
قال وقد ضاق صدره :
- كلا ، كلا ! إن أل سان – أوريول هم الذين فقدوا كل ثروتهم أو معظمها ومع ذلك فهم يملكون قصر الكارفورش أما أل فلوش وهم في سعة من العيش فهم يعيشون معهم ليساعدوهم فهم يتكلفون بنفقات البيت وبذلك يتيحون لأل سان – أوريول الاحتفاظ بالكارفورش ومن المفروض ا، يؤول هذا القصر فيما بعد لكازيمير وأعتقد أن هذا هو كل مايأمله الصبى
- وزوجة الابن ! أم كازيمير ليست زوجة ابن سان – أوريول بل هى ابنته
- ولكن اسم الصبى ؟ (فتظاهر بعدم الفهم) الا يدعى كازيمير دى سان – أو ريول ؟
فأجاب ساخرا :
- أه ! كل ماهنالك أن الانسة دى سان – أوريول تزوجت من ابن عم لها يحمل اللقب نفسة
- عظيم !
قلتها وقد ادركت هدفى الى حد ما ولو أنى ترددت في أغلاق باب المناقشة كان القس قد أنتهى من تنظيف ردائة وكان يضع قدمه على حافى النافذة نظف حذاءه بمنديل بضربات قوية ليزيل ماعلق به من اتربه

سألته قائلا :

- وهل تعرفها ؟ ٠٠ الانسة دى سان – أوريول
رأيتها مرتين أو ثلاث مرات الا انها لا تجىء الى القصر الا مرور الكرام
- وأين تعيش ؟
- أعتدل واقفا القى بالمنديل المترب في ركن من اركان الحجرة وقال :
- هو أستجواب إذن ! ثم أضاف وهو يتوجه نحو الحوض :
- لن يلبث جرس العشاء أن يدق وأن أكون مستعدا
كان معنى هذا ان انصرف عنه وكانت شفتاه المضمومتان تحبسان الكثير من الكلام ولكنهما لن بسمحا بأن يفلت منهما شىء في هذه اللحظة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

(٥)

مضت اربعة ايام وأنا لم أزل في الكارفورش وقد خفت حدة قلقى عما كانت عليه في اليوم الثالث الا انى كنت اكثر مللا فلم اتوصل الى جديد لا ف الاحداث اليومية ولا في احاديث اهل الدار فاذا بى اشعر أن فضولى الى زوال من قله الزاد ٠ رأيت انه يجب أن أعرض عن فكرة اكتشاف المزيد وتأهبت للسفر من جديد فقد كان كل ماحولى يمسك عن تعريفى بما يعرف فالاب يتظاهر بالبكم منذ أن ظهر له مدى إهتمامى بما يعلم وأما كازيمير فكما كانت تزداد يقته بى كنت ازداد امامه حرجا فلم أعد استطيع سؤاله ثم أنى أصبحت أعلم كل مايمكن أن يخبرنى به وهو ليس اكثر مما اخبرنى به يوم أن اطلعنى على الصورة ٠ ومع كل فإن الصبى كا ن قد اخبرنى باسم أمه ببراءة وطهر وربما كان من الجنون أن أبدى تأثرى على هذا النحو بالصورة الجذابه التى كان يرجع تاريخها الى اكثر من خمسة عشر عاما بل انه حتى لو حدث اثناء إقامتى في الكارفورش أن ظهرت إيزابيل دى سان – أوريول كما اعتادت ان تظهر لما تمكنت ولا جرؤت على اعتراض سبيلها ومهما يكن الامر فقد كان تفكيرى الذى إنشغل بها فجأة قد كف عن الشعر بالملل والرقابة فاذ بهذه الايام الرهيبة تنقضى بسرعة وافاجأ بانتهاء الاسبوع ليس هناك مايبرر بقائى عند آل فلوش خاصة وأن عملى لم يعد يبرر تأخير الرحيل ولكنى قى هذا الصباح كنت أتجول في الحديقة وكان الخريف قد زاد من سعتها ورنين اصدائها فاذا بى اجدنى أهتف بصوت منخفض لا يلبث أن يرتفع : إيزابيل ! ٠٠٠ واذا بهذا الاسم الذى صدمنى في البداية يكتسى بالرقة والعذوبيةويتشرى فيه سحر خفى ٠٠ ورايتنى اردد قائلا :
ايزابيل دى سان – اوريول ، إيزابيل ! ٠٠ تخيلت ثوبها الابيض عند منعطف اللمر يمر ويختفى عن عينى ٠ وبين اوراق الشجر التى كانت تتغير وتتلون كان كل شعاع يذكرنى بنظراتها وابتسامتها الحزينة ٠ولما كنت لا أزال اجهل الغرام وافعاله تصورت نفسى عاشقا وطاب لى أن اكون كذلك فهمت في سماوات الحب طائعا وراضبا ٠كم كانت الحديقة جميلة ! خاصة وهى تتهيأ في جلال الحزن الخريف المنصرم كنت منتشيا وأنا التشبح اريج الطحلب والاوراق الذاوية وكانت اشجار الكستناء الفرعاء الصهباء تجردت من اوراقها تقريبا تميل باغصانها على الارض حتى تمسها ٠ كانت بعض اغصان العوسج الارجوانية تتلألأ في المطر المنهمر والكلأ المجاور لها إخضر يانعا وكانت توجد تعض الازهار الكولشيك متناثرة فوق عشب الحدجيقة وتحت ذلك في الوادى الصغير يوجد مرعى وردى اللون يلمحة المشاهد من المحجر كنت اجلس فيه عندما يكف المطر عن الانهمار فوق الحجر نفسه الذى كنت جلست عليه مع كازيمير في اليوم الاول ومن يدرى لعل الانسة دى سان – اوريول تكون قد جلست عليه من قبل فتخيلت انى اجلس الى جوارها ٠ كان كازيمير يرافقنى كثيرا ولكنى افضل أن اسير وحدى كان المطر يباغتنى كل يوم وانا في الحديقة فكنت أعود مبلالا الى المطبخ لاجفف ملابسى بالقرب من الموقد ٠ لم تكن الطاهية تحبنى وجراسيان كذلك ولم اتمكن بتلطفى ورقتى معهما أن انتزع منهما ثلاث كلمات ٠ حتى الكلب لم أتمكن من ان اجعل منه صديقا رغم

مداعبتى له وتملقى اياه ٠ كان " ترنو " يقضى معظم النهار راقدا في الموقد الواسع وكنت لا اكاد اقترب منه حتى يهب مزمجرا ٠ أما كازيمير الذى كنت اراه في الغالب جالسا على حافة المدفأة يقشر الخضروات او منهمكا في القراءةكان يضرب الكلب ضربا خفيفا زاجرا اياه لانه يسىء استقبالى ٠ كنت اتناول الكتاب من بين يدى الصبى واواصل القراءة بصوت مرتفع فيستند على ركبتى واشعر به وقد إنصرف الى بسمعة وقلبه ٠

لكن المطر المنهمر في ذلك الصباح هطل شديدا عنيفا بحيث لم اتمكن من التفكير في العودة الى القصر فأسرعت فلجأت بسرعة الى اقرب ملاذ وهو المبنى المهجور في نهاية الحديقة قرب الباب الحديدى وكان منهدما فيما عدا قاعة شاسعة لاتزال انيقة كأنها قاعة استقبال او مكان للنزهة الا أن اخشاب جدرانها المنحدرة كانت تتشقق وتتصدع لاقل صدمه ٠

عندما دخلت دافعا بابها الذى لم يحكم اغلاقه جاءت بعض الخفافيش خارجة مندفعة من النافذة التى خلت من زجاجها كنت اعتقد أن المطر لن يطول ولكنى وجدت وانا اخذ نفسى أن السماء قد اكفهرت واربدت تماما ٠ واذ بى مطوق في حصار طويل الاجل ٠كانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف وكان اهل الدار لايتناولون الغذاء الا في الثانية عشرة ٠وجدت انى سأنتظر حتى يدق الجرس الاول الذى مامن شك في ان صوته يصل الى هذا المكان ٠كان معى مايلزم للكتابة ولما كان بريدى متأخرا حاولت أن أثبت لنفسى أن شغل الفكر ساعة زمن لايقل يسرا عن شغله يوما كاملا ٠ الا أن خيالى كان يردنى الى ٠٠٠٠ أه ! لو كنت أعلم انها ستظهر ذات يوم في هذا المكان لحرقت هذه الجدران يزفرات قلبى الولهان ٠وسرعان ما تملكنى ضيق ممن تثقله العبرات ومكثت منها را في ركن من الحجرة فلم يكن بها مقعدا للجلوس واذ بى أنفجر في البكاء كطفل ضل الطريق ٠

ان لفظ الضيق كاضعف بالتاكيد من ان يعبر عنالاشجان المضنية التى كنت اقع فريسة لها دائما هذه الاشجان تستولى علينا فجأة ونحن في قمه سعادتنا فقبل لحظة يضحك لك كل شىء وتضحك أنت لكل شىء وفجأة اذا بغمامة سوداء داكنة تتصاعد مناعماق النفس وتقف حائلا بين المتعة والحياة واذ بها تكون ستارا أغبر يفصلنا عن بقية العالم ٠٠٠ واذ بحرارة هذا العالم وحبه والمه وانسجامه لاتلنا الا في صورة انعكاس مجرد فنرى ولانتأثر وربما اودى بنا ما نبذله من جهد يائس لاختراق هذا الستار الفاصل الى ارتكاب اية جريمة وقد يصل الامر بنا الى القتل او الانتحار وربما الى الجنون

هذا ماكان يدور بخلدى وأنا ارهف السمع للمطر المهمر كنت احتفظ في يدى بمديه ففتحتها لايرى القلم ولكن الورقة التى فتحت عليها مفكرتى ظلت بيضاء واذ بى احضر بسن المدية على سطح الجدار المجاور محاولا نقش اسمها لم أفعل ذلك عن اقتناع ولكن لانى كنت اعلم انالعشاق المولهين يفعلون ذلك وعلى اثر كل محاولة كان الخشب البالى

يتهاوى ويسقط وكان كل حرف انقشة يترك وراءةثقبا ٠ وبر قصد ولمجرد شغل الوقت شرعت في تجريح الخشب كيفما اتفق مدفوعا بغريزة الهدم البلهاء ٠ كان الغطاء الخشبى الذى كنت احطمة يقع تحت النافذة مباشرة وكان اطارة منفصلا في اعلاه بحيق كان من السهل ان يسحب الغطاء كله من اسفل الى اعلى بين جوانبة ٠ وهذامالاحظته عندما فوجئت بمديتى ترفع هذاالغطاء الخشبى في غمار النقش والتجريح ٠
لم تمض لحظات حتى كنت قد اجهزت على تفتيت الغطاء الخشبى واذ بمظروف يسقط على الارض مع فتات الخشب وكان متسخا عطنا اكتسب لون الجدار بحيث لم ادهش بدايه كلا لم أتعجب من رؤيته فم اجد غرابة في وجوده هنا ٠ ولذلك لم أتأثر ٠ ولم احاول فضه فورا كان دميما مغبرا قذرا يظنه المشاهد جزءا من انقاض ٠فاذا كنت قد تناولته فانما كان ذلك لشغل الفراغ ٠ واذا كنت فضضته فانما كان ذلك بطريقة آلية أخرجت منه ورقتين مكتوبتين بخط كبير باهت اللون وغير مرتب يكاد يكون ممسوحا في بعض الاجزاء ٠ ماذا يفعل هنا هذا الخطاب ! نظرت الى التوقيع فذهلت كان اسم ايزابيل مكتوبا في نهاية الورقتين ٠
كانت تشغل بالى حتى اللحظة ٠٠ فتوهمت لبرهة انها تكتب الرسالة لى أنا :" حبيبى هذهآخر رسالة منى لك ٠٠ أنا اكتب هذه الكلمات على عجل لأنى أعرف أنى لن أتمكن هذا المساء من قول شيء لك فشفتاى وهما الى جوارك لن تعرفا غير القبلات فاسمعنى بسرعة وانا لا أزال قادرة على الكلام أنصت الى ٠٠ لقاؤنا في الحادية عشرة متقدم جدا فالأفضل أن يكون في الثانية عشرة ٠ أنت تعلم انى أذوب لهفة الى لقائك وأن الانتظار يضنينى ولكنى لكى اسعى للقائك لابد أنينام كل من في الدار أجل الثانية عشرة وليس قبل ذلك ٠تعال للقائى عند باب المطبخ سر بمحاذاة جدران بستان الخضروات الذى يقع في منطقة مظلمة فناك أيضا اشجار العوسج ٠ إنتظرنى هناك وليس امام الباب الحديدى لا أقول هذا لانى اخشى أن اجتاز الحديقة وحدى ولكن لأن الحقيبة التى اضع فيها بعض ملابسى ستكون ثقيلة للغاية بحيث لن اقوى على حملها لمدة طويلة ٠٠ أرى انه من الافضل ان تظل العربة في طرف الشارع الضيق حتى نتمكن من رؤيتها بسهوله وكذلك بسبب كلاب المزرعة التى من الجائز أن تنبح وتوقظ النيام فهذا أقرب للحرص كلا ياصديقى فكما تعلم لم تكن لدينا وسيلة الى اللقاء مرة اخرى والاتفاق على هذا كله شفاهة تعلم انى اعيش هنا اسيرة وان العجوزين اصبحا لايسمحان لى بالخروج ولا بالدخول ٠ آه أى زنزانة تلك التى اهرب منها ٠ ٠سأهتم بأن اخذ معى زوجا من الاحذية لغيار انتعلة بمجرد أن تركب العربة لان العشب في طرف الحديقة مبلل بالماء ٠ كيف تسألنى بعد ذلك عما اذا كنت ناوية ومستعدة فلتعلم يا حبيبى انى منذ شهور أتهيأ ومنذ شهور وانا مستعدة ٠ وهاهى ذى اعوام مضت وأنا أنتظر هذه اللحظة ! وتسألنى الن أندم على ذلك ٠٠ أنت لم تفهم اذن انى اصبحت امقت كل من تربطهم علاقة بى وكل مايقينى الى هذهالدار ٠ اهذهحقا ايزا الرقيقة المتهيبة التى تتحدث اليك ! صديقى وحبيبى ماذا فعلت بى ياغرامى ؟ ! أنا هنا اختنق وافكر في العوالم الاخرى التى تفتح لى ابوابها أنا ظمأى اوشكت ان انسى اخبارك بانى لم أفلح في انتزاع فصوص الياقوت من علبتها لانخالتى لم

تعد تترك ممفاتيحها في حجرتها ولدى سوار امى والسلسلة المطعمة وخاتمان وقد يكونان بلا قيمة كبيرة ولكنى اعتقد ان السلسلة في غاية الجمال ٠ أما عنالمال فسأبذل جهدى ولكنك ايضا تحسن صنعا لو حصلت على مبلغ منه ٠ لك خالص دعواتى ٠ (الثانى والعشرون من اكتوبر الموافق عيد ميلادى الثانى والعشرين وليلى خلاصى) صديقتك ايزا ٠

وافكر في رهية ماذا لو كان على ان انسج رواية من هذهالقصة الواقعية وفي الجهد الذى كان بتحتم على ان ابذلة في صياغة هذه الصفحات التى يسبلزمها الاطناب ٠ وفكرت بعد قراءتها وتساءلت في امرها فانتهى بى التفكير الى الحيرة والبلبلة ٠ والحقيقة انى غرقت في وجوم اشبة بالوجوم الذى يستتبع صدمة عنيفة وعندما بلغ سمعى عبر اضطراب دمائى صوت الجرس يدق ويكرر الدق تبينت انه صوت الجرس الثانى الذى يدعو للغذاء ٠فكيف لم اسمع الدقة الاولى ؟ أخرجت ساعتى فوجدتها تشير الى الثانية عشرة فقفزت الى الخارج في الحال اضم الى قلبى تلك الرسالة وأندفعت عارى الرأس تحت وابل المطر المهمر ٠

وجدت آل فلوش قلقين لغيابى ٠ ولما وصلت لاهثا قيل لى : إنك ايها السيد العزيز مبلل الثياب تماما ٠٠ ورفضوا الجلوس الى المائدة قبل ان اغير ثيابى ٠ فما أن عدت حتى اخذ الرجل والمرأة يسألانى في تودد فوجدتنى مضطر للقول بأن المطر احتجزنى داخل المنزل وانى ظلت أنتظر عبثا مهله ينتهى بعدها المطر المنهمر ٠ فاعتذروا عن رداءة الجو وبشاعة الممرات واعتذر ا عن ق الجرس الثانى قبل موعده بكثير وأنالجرس الاول دق اضعف من المعتاد ٠٠ انطلقت الانسة فيردوز لتحضر شالا رجانى آل فلوش أن أغطى به كتفى لانى كنت لاأزال اتصبب عرقا ومن الجائز أن اصاب بسوء كان القس في تلك الاثناء يراقبنى دون أن ينطق بكلمة وقد ضم شفتية بشدة حتى بدا عابسا الوجه وكنت بالغ الحساسية بحيث شعرت تحت وطأة نظراته بالخجل والارتباك كطفل أرتكب ذنبا ٠ ورأيت أن منالواجب التودد اليه لانى لن اعرف شيئا بعد ذلك الا عن طريقه فهو وحدة الذى يستطيع أن يجلو لى ماغمض من هذا الموضوع الشائك الذى اصبحت انجذب اليى بدافع الحب اكثر من دافعالفضول ٠

بعد تناول القهوة كانت السيجارة التى قدمتها للقس ذريعة للمحادثة فتوجهنا للتدخين في تعريشة البرتقال حتى لانضايق البارونه بادرنى في لهجة ساخرة قائلا :

- كنت أعتقد انك لن تمكث هنا اكثر من ثمانية ايام

- هذا ماكنت انوى عمله لولا تلطف اهل الدار

- ووثائق السيد فلوش ؟

- إستوعبتها ٠٠ ولكنى وجدت سببا ادعى للانشغال

إنتظرت منه استفسارا ولكنه لم يقل شيئا فاستطردت قائلا وقد نفذ صبرى :

- لابد أنك تعرف اسرار هذا القصر وخفاياه

جحظت عيناة وقطب جبينه وتظاهر بالبراءة والبلاهه فقلت :

- لماذا لاتقيم مدام دى سان – أوريول والدة تلميذك هنا فتوزع اهتمامها بين انها العاجز ووالديها المسنين ؟
ولكى يجيد تمثيل دور المدهش القى بسيجارته وفتح يديه ووضعهما حول وجهه وهمهم قائلا :

- ربما كانت مشاغلها تستدعى وجودها في مكان اخر ٠يالهمن سؤال مغرض
- هل تريد سؤالا اكثر تحديدا ٠٠ ماذا فعلت السيدة او الانسة دسان –اوريول والدة تلميذك ليلة ٢٢ أكتوبر حيث كان من المفروض أن يأتى حبيبها لاختطافها ؟
حط قبضتية على خاصرتيه وقال :

- عجبا ! ٠٠٠ عجبا !٠٠٠ ياسيدى الروائى
كنت منساقا الى الافضاء له بأسرارى وهو افضاء لاينبغى ان يكون الا لشخص يبادلنى ودا بود لانهالقس ماأن أدرك مقصدى حتى شرع يسخر منى بطريقة لاطاقة لى بها فأضاف قائلا :

- الا ترى انك تتسرع ؟ هل لى أناسألك بدورى كيف توصلت الى هه المعلومات ؟
- الرسالة التى كتبتها ايزابيل دسان – اوريول الى حبيبها فى ذلك اليوم لم يتلمها بل تسلمتها انا
كان علية ان يدرك مدى خطورتى ففى تلك اللحظة لمح بقعة صغيرة على كم رداءة فشرع يحكها بطرف ظفرة وبدأيغير من موقفة وقال :

- أنا معجب بهذا السلوك ٠٠ فما أن يعتقد احدكم انه ولد روائيا حتى يستبيح لنفسة جميع الحقوق ٠٠ لو كان غيرك مكانك لفكر مرتين قبل أن يطلع على رسالة ليست موجهه اليه
- بل أرجو الا يكون قد اطلع عليها اصلا
كنت اتفرس وجهه الا انه كان لايزال يحك رداءة وقد اخفض عينية :

- على كل حال لااعتقد ان احدا طلب منك ان تقرأها
- هذه الرسالة وقعت بين يدى صدفه كان المظروف رثا ومتسخسا وشبه ممزق ولا يحمل اى اثر لكتابة ٠٠ وعندما فتحته وجدت رسالة موجهه من انسة دى سان – اوريول ولكن الى منكانت موجهه ؟هيا ايها القس عاوننى من كان منذ اربعة عشر عاما عشيقا للانسة دى سان –اوريول ؟
كان القس قد وقف معتدلا فاخذ يسير طولا وعرضا في خطى قصيرة مطأطأ الرأس شابكا يديه خلف ظهرة ٠ وما ان اصبح خلف مقعدى للمرة الثانية حتى توقف وشعرت فجأة بيدية تستقران فوق كتفى

- ارنى هذه الرسالة
- هل ستتكلم ؟

شعرت بقبضته ترتجفان من اللهفة :
- آه ! لاتشترط ارجوك ارنى هذه الرسالة فحسب
- دعنى أذهب لاحضارها
قلتها محاولا الافلات منه

- إنها معك هنا ٠٠ في حقيبتك
كانت عيناه مركزتان على مكان الرسالة كما لو كانتسترتى تشف عنها لعله يقوم بتفتيشى

كان وضعى لايسمح بالدفاع عن نفسى خاصة ضد عملاق اقوى منى ثم ما السبيل بعد ذلك الى حمله على الكلام ! ٠٠ التفت فإذا بوجهه يكاد ينطبق على وجهى ٠ كان وجها منتفخا متورما خط جبينه عرقان ضخمان واسفل عينية جيو ب بغيضة تكلفت الضحك خشية ان يفسد كل شىء بيننا وقلت له :

- عفوا ايها القس ٠ اعترف انك مثلى تعانى من الفضول
اخلى سبيلى فنهضت في التو وتظاهرت بالخروج

- لو لم تتبع معى اساليب قطاع الطرق لاريتك الرسالة
ثم قلت وانا امسكة من ذراعة :
- فلنقترب من قاعة الاستقبال لأتمكن من طلب النجدة
كنت أبذل مجهودا خارقا لاحافظ على روح الدعابة في لهجتى الا انق لبى كان يدق بشدة

- خذ إقرأها امامى اريد ان ارى كيف يقرأ القس رسالة غرامية ٠ قلت ذلك وانا اخرج الرالة من جيبى
لكنه تملك نفسه من جديد ولم يظهر اى انفعال الا من خلال رعشة خفيفة في عضلاةصغيرة على خدة كان من المستحيل إخفائها ٠ قرأ الرسالة ثم تسمم الورقة وهو يقطب حاجبيه في شدة وبطريقة يبدو منها ان عينيه تسخطان على انفه ثم أعاد طى الرسالة وردها الى وقال بلهجة شبه رسمية :

- في ذلك اليوم الثانى والعشرين من اكتوبر قتل الفيكونت يليز جونفريفيل في حادث اثناءقيامه بالصيد
- انتفض فزعا لما تقول (فسرعان ما نسج خيالى قصة مأساة مروعة) ويجب ان تعرف اننى عثرت على هذه الرسالة خلف اخشاب الدار ٠٠ ومامن شك في انه كان من المفروض ان يحضر الى ذلك المكان ليتسلمها
عندئذ اخبرنى القس ان اكبر انباء جونفريفيل وكانت ضيعتهم تجاور ضيعة آل سان – اوريول قد وجد قتيلا بجوار حاجز من الحواجز كان فيما يبدو يريد ان يجتازة عندما اتى بحركة خرقاء فانطلق عيار من بندقيتة ومع ذلك لم يعثر في ماسورة بندقيته على خرطوش العيار ولم يتقدم احد بأيه معلومات عنالحادث فالشاب كان قد خرج بمفردة ولم

يره احد الا انه في اليومالتالى عثر المارة على كلب من كلاب الكارفورش يلعق في بركة من الدماء بالقرب من الدار
اردف القس قائلا :
- لم اكن بعد قد حضرت الى قصر الكارفورش ولكنه يبدو لى طبقا للمعلومات التى تمكنت من جمعها انج راسيان هو الذى ارتكب الجريمة فليس من المستبعد ان يكون قد اكتشف ما كان بين سيدة والفيكونت من علاقات وربما علم كذلك بموضوع هروبها (وهو موضوع كنت اجهله انا نفسى قبل ان اقرأ هذه الرسالة) فهو خادم عنيد شرس لايتورع عن اتيان أى فعل في سبيل الذود عن حمى سادته
- ولماذا لم يقبض عليه ؟
- لم يكن لاى احد مصلحة في اتهامه وكان ال جونفريفيل وال سان – اوريول يخشيان ما قد يثار من شائعات حول هذا الحاث المفجع فضلا انه بعد بضعة شهور وضعت الانسة دى سان – اوريول طفلا بائسا ويرجع الناس عاهة كازيمير الى ما إتخته امه من تدابير بهدف اخفاء حملها لكن الله يعلمنا ان عقاب الاباء غالبا مايقع على الابناء ٠ تعالى معى الى الدار فأنا مطوق لرؤية المكان الذى عثرت فيه على الرسالة ٠
كانت السماء قد عادت الى صفائها فاتخذنا طريقنا الى الدار معا وذهبنا على خير فقد امسك القس بذراعى ومضينا في خطى متساوية نتحاور بلا صدام لكن الامر فسد عند العودة فلا شك ان غرابة الحاث اثرت في نفس كل منا بطريقة مختلفة اما انا فأمام ما اظهره القس من حس التلطف في اطلاعى على المعلومات وان نسيت مايملية رداءة من احترام ةهيبة كما نسيت تحفظى وجدتنى اتحدث اله كما لو كان رجلا عاديا ٠٠ ولكن كيف دب الخلاف بيننا ؟! ٠٠ كنت اقول له :

- من ذلك الذى يحكى لنامافعلته الانسة دى سان – اوريول في تلك الليلة ! فما شك انها لم تعلم بخبر موت الكونت الا في الصباح ! فهل إنتظرته في الحديقة ؟ وحتى متى ؟ وماذا إعتقدت عندما لم يأت ؟
كان القس يلزم الصمت تماما دون ان يتأثر لشاعريتى فعدت اقول :

- تصور هذه الفتاه الرقيقة وقلبها مثقل بالغرام واسى ورأسها مفعم بالهوس ايزابيل المتيمة !
همس القس :
- قل ايزابيل الفاجرة !
واصلت حديثى كأنما لم اسمع همسه ولكنى كنت قد صممت على الدفاع عنها لو عاد الى مهاجمتها :

- فكر في كل ما كانت تعلقه من امل وما إنتابها من يأس ٠٠
قاطعنى في جفاء
- لماذا تفكر في هذا كله ! ليس علينا ان تعرف عن الاحداث سوى مايفيدنا

- ولكن الفائدة تختلف باختلاف المعلومات التى نعرفها
- ماذا تقصد بذلك ؟
- معرفتنا السطحية بالاحداث لا تتفق ومعرفتنا العميقة التى نستطيع فيما بعد ان نتوصل الها وان المعلوما ت التنستخلصها من هذين النوعين من المعرف لا تكون واحدة وان من الخبر ان نتمعن الامور ونتقصاها قبل ان نخلص الى النتائج
- صديقى الشاب إعلم انالميل الى التمعن والتقصى وحب الانتقاد هى جرثومة التمرد انن الرجل العظيم الذى إتخذته مثال كان احرى ب هان يعلمك ان ٠٠٠
- تقصد ذلك الذى اكتب عنهرسالتى ؟
- يالك من مناكف لحوح ابمثل هذه الروح ٠٠٠
- بالله عيك الا اخبرتنى ياسيدى القس اليس هذاالفضول نفسه هو الذى جعلك تصحبنى في هذا الوقت ودفعك منذ بر هه الى مكان الرسالة وحدا بك الى معرفةكل هذا الذى اخبرتنى ، كان قد اسرع خطاه وغدت لهجته قاطعة وجعل يضرب الارض بعصاه زهقا وتبرما :
- أنا لا ابحث مثلك عن تفسيرات للتفسيرات فما أن أعلم بالحادث حتى اقتصر على معرفته ٠ الوقائع الخطيرة التى أخبرتك بها تعلمنى أذا كانت لا تزال هناك حاجة الى تعليم بشاعة الرذ يلة التى يردينا فيها الجسد وفيها إدانه للطلاق ولكل ماتفتق عنه عقل الانسان ليبتجنب نتائج ماجنته يداه من أخطاء ٠ أظن ان في هذا الكفاية اليس كذلك ؟
-ليس في هذا الكفاية ! الواقعة لاتعنينى في شىء طالما لم اصل الى اسبابها فمعرفة الجانب الخفى في حياه ايزابيل دى سان –اوريول والاطلاع على السالك العطرة الشجية المعقدة ٠٠٠
- حذارى ايها الشاب بدأت تهيم بها !

- آه ٠٠ هذا ماكنت أتوقعه ! المظهر لايكفينى الان وقد اكتفى بالاقوال والاشارات ٠٠ أواثق أنتمن أنك لاتسىء الحكم على هذه المرأة ؟
- إنها فاجرة !

الهب الغيظ رأسى ولم اتمكن من كتمانه الا بمشقة بالغة :

- سيدى القس مثب هذه الالفاظ تدهشنى عندما تخرج من فمك ويبدو لى ان المسيح يعلمنا أن الصفح أجمل من التنكيل
- فارق بسيط بين التسامح والمجاملة
- لوقدر له ان يكون مكانك لما قضى عليها بمثل مافعلت
- اولا هذه الامور لاتدرى عنها شيئا ثم ان المعصوم من الخطايا يستطيع أن يكون اكثر تسامحا حيال الأخرين من ذلك الذى ٠٠٠ أعنى أننا نحن العصاه ليس لنا ان ننتحل الاعذار للمعاصى كل ماعلينا أن نبتعد عنها بوجوهنا في استنكار
- بعد أن نتشممها كما تسممت أنت عطر هذه الرسالة !
- أنت وقح !

إبتعد عن الطريق فجأة وانطلق مسرع الخطى متخذا طريقا ضيقا قريبا وهو يرمينى على طريقة " البارتيين " بعبارة جارحة لم أميز منها سوى هذه الالفاظ : تعليم حديث سوربونى زنديق ٠

عندما التقينا على العشاء كان لايزال عابسا ولكنه ما أن تركنا المائدة حتى اقبل نحوى مبتسما وقدم لى يدا شددت عليها وأنا ابتسم انا الاخر ٠

بدت لى السهرة اكثر مللا من المعتاد ٠ كان البارون يئن في هدوء الى جانبالنار ٠وكان السيد فلوش والقس ينقلان نردهما دون كلام ٠ وبطرف عينى رأيت كازيمير وقد دس رأسة بين يديه يسيل لعابه ببطء فوق الكتاب فيمسحة مرارا بحركة من منديلة ٠ أما أنا فلم اهتم بلعبته البيزيج دون أن اسبب خسارة مروعة مخزية لمزميلتى ٠ وكانت مدام فلوش تلاحظ وتجزع لضجرى فكانت تبذل جهدا كبيرا لتثير حماسة في اللعب

- هيا ياأوليمب ! هذا دورك هل تنامين ؟

لم يكن النعاس ولكنه الموت الذى اصبحت اشعر بخدرة الغامض يجمد اهل الدار وانا نفسى كنت اشعر بالقلق بل بالضيق يطبق على صدرى ٠ أخذت اخاطب نفسى وانا افكر في ايزابيل قائلا " أيها الربيع ايتها الرياح الهائلة ايتها العطور الجاذ ية ايتها الموسيقى العذبه لن تصلى الى هذا المكان مطلقا ٠ ما أبشع القبر الذى افلت منه والى اى حياة ياترى ! إنطلقت إننى اتخيلك هناك في ضوء المصباح الهادىء وقد وضعت جبينك الشاحب على أناملك الرقيقة وخصلة من شعرك الفاحم تلامس معصمك وتداعبه ٠ ما بال عينيك تتطلعان بعيدا وماهذا الضجر الذى يعانيه جسك وروحك تعبر عنه هذه الزفرة التى لا يسمعونها ؟ ومنى أنا ايضا ودون أن ادرى افلتت زفرة هائلة اقرب الى التثاؤب او البكاء حتى أن مدام دى سان – اوريول صاحت وهى تلقى بآخر ورقة على المنضدة:

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب رغبة شديدة في النوم ٠

يالها من أمرأة مسكينة !

في تلك الليلة رأيت حلما في المنام لم يكن في البداية سوى تكملة للواقع فقد رأيت أننى لا أزال في حجرة الاستقبال قبل أن تنتهى السهرة تماما الى جوار اهل الدار ولكن جماعة اخذ عددها يزداد كانت تنضم اليهم مع انى لم ار احدا يدخل علينا تعرفت على كازيمير وهو يجلس الى المنضدة اما م احدى الالعاب وكان ثمة ثلاثة او اربعة رجال منكبين على اللعبة كان الموجودين يتحدثون بصوت منخفض بحيث لم اتمكن من تمييز عبارة واحدة مما يقولون ولكنى فهمت ان كل شخص يخبر جاره بأمر ما يثير دهشته كان الاهتمام موجها الى مكان بالقرب من كازيمير حيث تعرفت فجأة على ايزابيل دى سان – اوريول وهى جالسة الى المائدة (كيف لم اراها من قبل) كانت وحدها ترتدى ثيابا بيضاء وسط الحلل القاتمة ٠لاحت لى في البداية جميلةساحرة شبيهه بالصورة ولكنى سرعان ما أخذت بجمود ملامحها وثبوت نظراتها وادركت فجأة ما كان يهمس بهالقدم

لم تكن من امامى هى ايزابيل الحقيقية ولكن دمية تشبهها وضعت مكانها اثناء غياب الاصل ٠ وعندئذ بدت هذه الدمية قبيحة دميمة ٠ ضاق صدرى امام مظهر غباؤها المتحذلق كان المشاهد يعتقد أنها ساكنة تماما ولكنى وانا احدق النظر فيها رأيتها تميل ببطء الى جانب تميل وتميل حتى كادت تسقط ٠ فانطلقت الانسة أوليمب من الطرف الاخر لحجرة الاستقبال مالت حتى بلغت الارض ورفعت غطاء الكرسى الوثير وملأت زنبكا أخذ يصدر صريرا عجيبا ٠ فإذا بالمسخة تعتدل وتحرك ذراعيها حركة آلية غريبة تثر الضحك – نهض الجميع عندما حان وقت الانصراف تاركين خلفهم ايزابيل المزيفة وحدها كان كل فرد من المنصرفبن يحييها بانحناءة على الطريقة التركية فيما عدا البارون الذى إقترب منها دون مبالاة وأمسك شعرها المستعار وطبع على جبينها قبلتين رنانتين وهو نضحك مقهقها ٠ وما ان خلت حجرة الاستقبال منالزوار وقد رأيت عددا خفيرا ينصرف – حتى اطبق الظلام ورأيت رغم مالظلام حقا تلك الدمية وقد شحب لونها وإنتفض جسدها وسرت فيها الحياة كانت تنهض ببطء فاذا بها الانسة دى سان – أوريول بشحمها ولحمها ٠ توجهت نحوى بلا ضوضاء وسرعان ماشعرت بذراعيها الفاترتين تطوقان عنقى وإستيقظت على لفح انفاسها وهى تقول لى :

- أنا بالنسبة لهم غائبة أما بالنسبة لك فانى حاضرة

لست متطيرا ولا هيابا ٠ واذا كنت قد اشعلتشمعتى فذلك لكى اصرف عن عينى وعن رأسى هذه الصورة الماثلة ابدا ولقد تجشمت مشقة كبيرة في سبيل ذلك ٠ وعلى الرغم منى كنت اتنصت على كل صوت عساها تكون موجودة ٠٠ وعبثا شغلت نفسى بالقراءة فلم أتمكن من صرف إنتباهى عنها الى أى شىء آخر ٠وهكذا وأنا غارق في التفكير فيها عاودنى النوم حتى الصباح ٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

(٦)

هكذا فترت الحماسة التى لازمت فضولى العاشق ولم استطع تأجيل رحيلى اكثر من ذلك بعد أن أخبرت به اهل الدار مرة اخرى كان ذلك اليوم هو آخر أيامى في الكارفورش الان نحن على الغذاء في انتظار البريد الذى أعتادت ديفلين ان تحمله الينا قبل الحلوى • وكما سبق وقلت انها تسلمه لمدام فلوش فتتولى بدورها توزيع الرسائل وتقديم جريدة " الحوار " للسيد فلوش الذى يتوارى خلف صفحاتها حتى نغادر المائدة • في ذلك اليوم تعلق مظروف بنفسجى اللون بالجريدة إنفصل عنالحزمة وطار حتى وقع فوق المائدة بجوار صحن مدام فلوش • تمكنت من التعرف على الخط الكبير غير المنظم الذى دق له قلبى مساء امس وكذلك مدامفلوش فيما يبدو فأتت حركة سريعة اتغطى المظروف بصحنها • الا أن الصحن إصطدم بكوب فكسرة وسال النبيذ فوق المفرش أحدث ذلك ضوضاء عالية فانتهزت مدام فلوش الاضطراب وادخلت المظروف في قفازها •

قالت في سذاجه طفل يبحث عن عذر :

- أردت أن اسحق عنكبا

كانت لاتفرق بين العناكب وغيرها من الحشرات التى تخرج في بعضالاحيان من سله الفواكه • نهضت مدام دى سان – اوريول ملقية مشفتها فوق المائدة وقالت بلهجة حادة :

- أراهن انك اخطأت هدفك الحقى بى في حجرة الاستقبال معذرة ايها السادة فقد عاودنى المغص •

انتهى العشاء في صمت – لم ير السيد فلوش شيئا ولم يدرك السيد دى سان – اوريول شيئا • كذلك كان القس والانسة فيردور يركزان البصر كل في صحنه • ولو لم يتمخط كازيمير لرأيته يبكى •

كان الجو فاترا أحضرت الانسة فيردور القهوة الى الشرفة الصغيرة التى تؤدى بسطتها الى حجرة الاستقبال كنت اتناول القهوة مع الانسة فيردور والقس – بلغت آذاننا ضوضاء واصوات تجىء من حجرة الاستقبال التى كانت السيدتان بداخلها – ثم لم نعد نسمع شيئا فقد صعدت السدتان ولو صدقت ذاكرتى دارت مشاحنة شجرة الزان ذات اوراق البقدونس •

كانت الانسة فيردور والقس في حالة حرب دائمة • ولم تكن المعارك بينهما خطيرة تماما فقد كان القس يستهدف الضحك والمزاح الا ا، أكثر ما كان يثير سخك الأنسة فيردور هى لهجة القس الساخرة التى كان يتحدث بها • كانت تعرض نفسها لضرباته فيكيل لها في الصميم وكان لايكاد بمضى يوم واحد دون ان ينشب بينهما صدام كان القس يسيه مشاحنه ويزعم ان صة الأنسة في حاجة الى مثل هذهالمشاحنات فيفعل بها مايشاء وتطيعه منفذة مايريد كما الكلب المطيع لم يكن شرسا أو ميالا للايذاء مع ان تصرفاته معها لم تكن تخلو

من المكر والخبث وإثارة الأعصاب ٠كان هذا يشغل أوقاتها ويملأ الحياة من حولها بهجة ومرحا ٠

كانت الحادثة التى وقعت أثناء تناول الحلوى قد أثارت اعصابها حاولت أن أبعد الأذهان عنها عندما كان الاب يصب القهوة فعثرت يدى على حزمة من اوراق الشجر داخل سترتى كنت قطفتها من شجرة غريبة بجوار الباب الحديدى للمدخل لكى أسال الأنسة فيردور عن اسمها ٠ لم يكن ذلك لأنى شغوف بمعرفتها لكن لأن الأنسة فيردور كانت تسر عندما يلجأ اليها أحد ليستفسر منها عن أى شىء ٠

كانت تهتم بعلم النبات ٠ وكانت في تعض الايام تخرج لجمع الاعشاب وقد علقت فوق كتفيها القويتين علة خضراء تبدو غريبةالشكل ٠ وتقضى بين أعشابها ومجهرها ما تسمح به أعمال المنزل من فراغ ٠ وعلى ذلك تناولت الانسة فيردور الفص وقالت بلا تردد :

- ياله من اسم غريب ومع ذلك فهذه الأوراق المدببه لا علاقة لها إطلاقا بأوراق ٠٠٠
  كان القس يضحك في خبث منذ برهة قال دون ان يعبير الأمر إهتماما :

-هكذا يسمون في الكارفورش شجرة " الفاجوس بيرسيسيفوليا "

إنتفضت الانسة فيردور وعلقت بقولها :

- لم أكن اعتقد أنك تفهم في علم النباتات الى هذا الحد !
- كلا ولكنى ملم الى حد ما باللغة اللاتينية
  مال على واضاف قوله:

- هؤلاء السيدات يقعن ضحية خطأ لادخل لهن به ٠ أنكلمة بيرسيكوس يا آنستى العزيزة تعنى الخوخ وليس البقدونس وعلى ذلك فان " الفاجوس سيسيفوليا " التى لاحط السيد لاكاز اوراقها المدببة هى " شجرة الزان " ذات اوراق الخوخ ٠
  كان وجه الانسة فيردور قد إمتقع لونه ٠وكان الهدوء الذى اظهرة القس قد اهاج أعصابها الا انها استطاعت أن تقول دون أن تنظر اليه :

- علم النبات الصحيح لايهتم بالشواذ ولا بالمسوخ
  ثم أفرغت فنجانها مرة واحدة ومضت مثل الريح

كان القس قد ضم شفتية فأصلح فمه مثل مؤخرة الدجاجة وجعلت تخرج منه اصوات أشبة بالظراط ٠وبذلت مجهودا كبيرا حتى لا أضحك

- هل انت شرس الى هذا الحد ياسيدى القس ؟

- كلا كلا هذه الانسة لتؤدى التمرينات بما فيه الكفاية وهى في حاجة الى ان تلهب دمها ٠ وهى تميل الى العراك هل تتصور انى لو ظللت ثلاثة أيام دون ان اناوشها تجىء بنفسها وتبدأ العراك ثم أن وسائل اللهو في الكارفورش ليست كثيرة ٠

عندئذ شرع كلانا بدون كلام في التفكير في رسالة الغذاء ثم بادرت بسؤاله :

- هل عرفتالخط ؟

هز كتفيه قائلا :

- قبل الآن او بعد قليل تصل مثل هذه الرسالةالى الكارفورش مرتين كل عام بعد سداد إيجارات المزرعة وفيها تعلن عن حضورها ٠

صحت قائلا :

- هل ستحضر ؟
- لاعليك ! لاعليك فلن تراها !
- ولماذا لاأراها ؟
- لانها تحضر في منتصف الليل وترحل فورا ثم انها تتجنب العيون ٠٠٠وحذارى من جراسان

كان ينظر في وجهى بإمعان فلم أحرك ساكنا فاستطرد بلهجة محتدة :

- لن تعمل حسابا لماقلته لك هذا واضح ولكنى أنذرك فافعل مايبدو لك وأخبرنى غدا

نهض وتركنى دون أن اتمكن من معرفة هل كان يحاول ا، يحد من فضولى أم كان يثيرة ويلهبه! حتى المساء ظل فكرى الذى لا أحب أن اصف إضطرابه لاشاغل له الا إنتظارها ٠ فهل من الممكن أن أكون وقعت في حب ايزابيل ! كلا بالطبع ولكنى تماديت في لهوى حتى تحرك قلبى ٠ بكل هذا العنف فكيف لا يختلط على الامر ؟ لقد صادفت في فضولى كل ما يصحب الغرام من شوق وإرتباك كولهفة ولم تزدنى كلمات القس الأخيرة غير حماسة وتصميما وماذا يمكنه أن يفعل بى جراسيان ؟ سوف اسير فوق الشوك والجمر لو إقتضى الأمر ٠

لاشك أن امرا ما غير عادى كان يدبر ٠ ففى المساء لم يقترح أحد اللعب وما أن انتهينا من العشاء حتى بدأت مدام دى سيان – أورتول تشكو مما كانت تطلق عليه " رفصا " – واذ بها تنسحب بدون إستئذان بينما تعد لها الأنسة فيردور شرابا ساخنا ٠ وماهى الا لحظات حتى طلبت مدام فلوش من كازيمير ان يذهب لينام ٠ وماى ان انصرف الصبى حتى قالت لى :

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب في النوم أيضا فيبدو أن النعاس يداعب أجفانه

ولما لم أجب على تعليقها أضافت قولها :

- آه ٠٠ أعتقد أن مامن أحد سيطيل السهر اكثر من ذلك

نهضت الأنسة فيردور لتشعل الشموع وسرت في أثرها أنا والقس فرأيت مدام فلوش تميل على زوجها الذى كان يغط في نومه فوق المقعد بالقرب من الموقد فنهض من فوره ثم سحب البارون من ذراعة فأطاعه هذا الاخر كما لو كان يدرك معنى تلك الحركة ٠ وعلى بسطة الطابق الاول كان كل منا يحمل سمعته فانصرف كل الى حجرته ٠ وعندئذ قال القس بإبتسامة غمضة :

- طابت ليلتك ! هنئت بنومك ٠

اغلقت باب حجرتى ومكثت أترقب لم تكن الساعة قد تجازت التاسعة سمعت مدام فلوش وهى تصعد الى حجرتها ثم سمعت الأنسة فيردور وقعت مشادة حامية على بسطة السلم بين مدام فلوش ومدام دى سان – اوريول التى كانت قد خرجت من حجرتها ٠ وكأننا بعيدين عنى بحيث لم أتمكن من تمييز متبادلة منالالفاظ ثم سمعت ضوضاء أبواب تغلق ثم لم أعد اسمغ شيئا ٠

تمددت في فراشى حتى أنصرف الى التفكير فاستعدت التمنيات الطيبة بالنوم الهانىء التمنيات التى ودعت بهاالقس وتمنيت لو عرفت هل تهيأ هو للنوم أم انه إستعد للفضول الذى أنكرة امامى ؟ ولكنه كان يرقد في جناح أخر من القصر يقع في الطرف المقابل لحجرتى ولم يكن هناك من سبب وجية يبرر إنتقالى اله ٠ ومع هذا فمن منا سيكون اكثر حرجا لو فاجأ الاخر في الدهليز ؟ ٠٠ وبينما أنا غارق في التفكير وقع لى حادث سخيف مخجل لايمكن أن اصرح به فغلبنى النوم ٠ أجل فالاجهاد الذى تملكنى من طول الأنتظار بعد الليلة السابقة التى امضيتها أرقا قلقا تغلب على رغبتى وحرصى على البقاء ساهرا يقظا فاستغرقت في نوم عميق ٠

إستيقظت على طقطقة السمعة وهى توشك على النفاذ او ربما أستيقظت على حركة هزت أرضية الدهليز في صوت مكتوم سمعتها اثناء نومى ولا شك أن احدا سار في الدهليز فاعتدلت جالسا في تلك اللحظة إنطفأت شمعتى فظللت في ظلام الليل حائرا ولم يكن معى مايضىء غير بضعة اعواد من الثقاب حككت أحداهما لاتبين الوقت من ساعتى كانت الحادية عشرة والنصف فارهفت سمعى ولكنى لم أعد أسمع شيئا قمت أتحسس طريقى حتى بلغت باب الحجرة ففتحته ٠

كلا لم يكن قلبى يدق رجفه أو إضطرابا بل كنت أشعر أننى خفيف الجسم رابط الجأش مطمئن النفس متفتح الذهن حازم الامر ٠

في الطرف الاخر للدهليز كانت ثمه نافذة ترسل ضوءها فيصلنى غير رائق ولا صافى كضوء الليالى الهادئة وإنما ضوء اخفاقا ينجلى حينا وستتر حينا اخر فقد كانت السماء تمطر وكانت الرياح أمام القمر تحمل سحبا كثيفة ٠ كنت قد خلعت حذائى فتقدمت بدون ضوضاء ٠٠٠ لم أكن بحاجة الى امعان النظر لاصل الى المكان الذى كنت أعددته للمراقبة ٠ كان يمثل حجرة صغيرة مهجورة بجوار حجرة مدام فلوش حيث كان يدور

الهمس بعيدا عنالعيون كان السيد فلوش يشغلهذه الحجرة في البداية (لكنه اصب حالان يفضل كتبه على زوجته) وكان الباب الذى يصل اليها قد فتح قليلا وكنت قد احكمت إغلاقة بالمزلاج حتى اتجنب المفاجأة فتأكدت انى استطيع أن انظر بعينى من تحت إطار البا ٠ ولكى أبلغ ذلك كان لابد لى أن اجلس فوق خزانه كنت قد دفعتها قريبا من المكان ٠

في تلك اللحظة كان يتسرب من تلك الفتحة بصيص من النور ينعكس على سقف الحجرة الابيض فيهدينى ويرشدنى ووجدت كل شىءعلى حاله التى تركته عليها في النهار ٠ صعدت فوق الخزانه وتجولت ببصرى في أرجاء الحجرةالمجاورة ٠

كانت ايزابيل دى سان – اوريول موجودة

كانت امامى على بعد خطوات منى ٠٠٠ جالسة على مقعد منخفض بدون مسند وقد تسبب وجوده في تلك الحجرة العتيقة في دهشتى لانى لا أذكر انى رأيته فيها عندما دخلتها احمل الزهور كانت مدام فلوش تجلس غارقة في مقعد وثير ضخم٠ كان الى جانب المقعد منضدة صغيرة عليها مصباح يلقى عليها وعلى الانسة ايزابيل ضوءا خافتا كانت ايزابيل تدير لى ظهرها وكانت تميل الى الامام فتكاد تكون راقدة في حجرة خالتها العجوز بحيث لم اتمكن في البداية من رؤية وجهها ٠ وسرعان مارفعت هامتها وكنت اتوقع ان اراها وقد تقدمت في السن ٠ مع انى لم اكد أتعرف في وجهها على تلك الفتاة التى طالعتها في الصورة ٠ وهذا لايعنى انها كانتاقل جمالا من الصورة بل كان جمالها من نوع اخر جمال اقرب الى عالم الارض ودنيا البشر ٠ إن تلك البراءة الملائكية التى تطالعها في الصورة زالت ليحل مكانها وجه ناعس ساهم عاطفى ٠ إلرتسمت في طرفى شفتيها علامة تنم عن نفور لاأدرى كنهه بينما كانت في الصورة فاغرة الشفتين وكانت تتدثر معطف سفر ضد الماء من قماش شائع في ذلك الوقت ٠ولما كان المعطف مرفوعا من ناحية فقد أبان عن ثوب اسود لامع تدلت عليه يد تعرت من قفازها تمسك بمنديل وكانت هذه اليد تبدو شاحبة هزيلة بطريقة غريبة كان رأسها مكسورا بغطاء من اللباد والريش المموج يحيط به شريط منالحرير تدلت من تحته خصلة من الشعلر الفاحم ٠ وما أن تميل براسها حتى تتطرح الى الايام فتحجب وجنتيها كان الناظر يظنها في لباس حداد لولا شريط لامع اخضر يطوق رقبتها ٠ لم تكن تنطق بكلمة لاهى ولا مدام فلو شالا انها كانت تربي بيدها على ذراع مدام فلوش وتجذبها نحوها ثم مالبثت ان انهالت عليها لثما وتقبيلا.

رأيتها بعد ذلك تهز رأسها فتتمايل خصلات شعرها وتهفهف ذات اليمين وذات اليسار وعندئذ قالت وكأنها تعقب على عبارة قالتها من قبل

- كل الوسائل ٠ لقد جربت كل الوسائل اقسم لك ٠٠٠

فقاطعتها العجوز المسكين وهى تضع يدها فوق جبين الفتاة :

- لا تقسمى يابنيتى المسكينة اصدقك بدون قسم

كل منهما كانت تتحدث بصوت منخفض اشبه بالهمس كما لو كانتا تخشيان أن يسمعهما احد ٠ إعتدلت مدام فلوش في جلستها ودفعت إبنة اختها برقة ثم استندت على ذراعى المقعد ونهضت ٠ وبالمثل نهضت الانسة دى سان – اوريول وبينما كانت العجوز تتجه نحو الخزانه التى كان كازيمير قد أخرج منها الصورة اول امس تقدمت الفتاة في الاتجاه نفسة بضع خطوات وتوقفت اما م مائدة صغيرة ملتصقة بالجدار وفوقها مرآة كبيرة ٠ وبينما كانت العجوز تنقب في احد الادراج لمحت الانسة في المرآة الشريط الزمردى الذى يطوق عنقها فبادرت بنزعة بسرعة ولفته حول اصبعها ٠٠ وقبل ا، تلتفت مدام فلوش كان الشريط قد اختفى كانت ايزابيل قد اتخذت هيئة التفكير والتأمل وتدلت يداها الى الامام متشابكتين وغابت نظرتها ٠

كانت مدام فلوش لاتزال تمسك باحدى يديها بحزمة المفاتيح وفي يدها الاخرى لفة صغيرة من الاوراق اخرجتها منالدرج وكانت تهم بالجلوس في مقعدها الوثير عندما فتح الباب المواجه للباب الذى كنت اقف عندة فجأة وعلى سعته كدت اصيح من هول الدهشة فقد ظهرت البارونه في أطار الباب شعثاء مكشوفة الجبين محضبة الوجه في ثياب فضفاضةوعلى رأسها غطاء ضخم من الريش ٠كانت تحمل شمعدان ذو ست شعب أخذت تهزة بعنف كانت كل شموعه مشتعلة فتغمرها بضوء خفاق وتنشر على الارض قطران من النور ٠ ولما كانت منهكة القوى اسرعت بوضع الشمعدان فوق المائدة الصغيرة التى تحمل المرآه ثم عادت بأربع خطوات خفيفة الى مكانها في اطار الباب وتقدمت من جديد في خطى منظمة وبطريقة مهيبة تشيح بيدها الميقلة بالخواتم الضخمة وما ان بلغت منتصف الحجرة حتى توقفت والتفتت مرة اخرى ناحية إبنتها وقالت وهى لاتزال متوترة الحركة بصوت يكاد يخترق الجدران :

- اليك عنى ايتها الابنة العاقة لن أتأثر بدموعك وشكواك التى ضلت طريقها الى قلبى الى الابد ٠

جاء قولها بطريقة خطابية شبيهة بالصراخ بتغمة واحدة ٠وهنا كانت ايزابيل قد ارتمت عند قدميها وامسكت بطرف ثوبها وجذبته كاشفة عن حذاء ين صغيرين منالحرير الابيض واخذت تضرب بجبينها الارض التى كان يكسوها بساط ٠ الا أن مدام سان – اوريول لم تخفض بصرها لحظة واحدة واستمرت تصوب نظراتها حادة جامدة كصوتها الى الامام ثم قالت :

- أو لم تكتفى بجلبك الشقاء لاهلك وتريدين أن تتمادى ٠٠٠عندئذ خانها صوتها فجأة فالتفتت ناحية مدام فلوش وكانت هذه قد تضاءلت واخذت ترتجف في مقعدها الوثير وخاطبتها قائلة :
- أما انت ياشقيقتى فلو كان الضعف لايزال ٠٠٠

ثم استدركت قائلة :

- لو دفعك ضعفك الاثم الى النزول مرة اخرى على تضرعاتها ولو كان ذلك بقبلة ولو كان ذلك بأقل عطاء فتأكدى مثل تأكدك بأننى شقيقتك انى سأهجرك ولن ترى وجهى ماحييت

كنت كما لو كنت في مسرح ولكن لما كانت هاتان السيدتان لاتتمكنان من ملاحظة نفسيهما فلم ياترى كانتا تمثرن هذه المأساة ؟ كذلك كانتالفتاة مبالغة فيحركاتها وإيماءاتها متكلفة مثل امها ٠٠٠ كانت الام تواجهنى بحيث كنت ارى ايزابيل من ظهرها وقد ركعت وإتخذت وضع استير الاسطورى وهى تتضرع واذا بى ارى قدميها المنتعلتين حذاء حريريا بلون الخوخ ٠هكذا بدا لى تحت طبقةالوحل التى كانت تعلوة كانت ترتدى جوربا ابيض رأيته اعلى الحذاء وقد ترك عليه طرفى الثوب المبلل الموحل عندما رفع بقعة قذرة ٠٠٠وفجأة دوى في اعماقى كل ما تحكية هذه الاشياء من مغامرات وشقاء فاق في قوته شتائم العجوز ٠٠ واذا بعبرة تخنق حلقى فقررت ان الحق " بايزا " في الحدقة عندما تغادر القصر ٠

عندئذ كانت مدام فلوش قد تقدمت ثلاث خطوات مقتر بة من مقعد مدام دى سان- أوريول:

- هيا اعطنى هذه الاوراق المالية أتعتقدين انى لا اراها وانت تفركيها تحت قفازك ؟ أتعتقدين أنى عمياء أو مجنونه ؟ أعطنى هذه النقود قلت لك ما أناستولت على النقود حتى قربتها من لهب احدى شموع اشمعدان بطريقة مسرحية وهى تقول :

- أفضل أن اقوم بأحراقها جميعا (مع انها لم تفعل ذلك) على ان اعطيها فلسا واحدا

دست الاوراق المالية في جيبها وأستأنفت قولها :

- ايتها الابنة العاقة ٠٠ ايتها الابنةالجاحدة ٠٠ الطريقة التى سكلتها اساورى وعقدانى ستجعلين خواتمى تسلكها هى الاخرى

كانت تقول ذلك وهى تهز يدها الممدودة في حركة خفيفة فسقط خاتمان فوق البساط فما كان من ايزابيل الا أن إنقضت ككلب جائع ينقض على العظام

- انصرفى الان لم يعد بيننا ما يقال أنا بريئة منك ٠٠

تناولت مطفأة للشموع من فوق المنضدة واخذت تطفىء الواحدة بعد الاخرى ثم إنصرفت بدت الحجرة مظلمة كانت ايزابيل قد نهضت فمررت اصابعها على وجنتيها وطرحت خصلاتها الى الخلف وهى متناثرة واصلحت من وضع قبعتها ٠ هزت جسدها فعدلت المعطف الذى انحسر عن كتفيها قليلا ثم مالت على مدام فلوش لتودعها لاح لى انالمرأة المسكينة كانت تحاول ان تحدثها فما كان من ايزابيل الا ان تناولت إحدى يدى العجوز المرتجفتين وضغطت عليها بشفتيها دون ان تنبي بحرف واحد ٠ وماهى الا لحظة واحدة حتى إنطلقت الى الدهليز في اثرها ٠

فى اللحظة التكنت اهبط فيها السلم اوقفنى صوت ما فعرفت فيه صوت الانسة فيردور التى لحقت بها ايزابيل في المدخل ورأيتها وأنا اميل على الدرابزين وكانت أوليمب فيردور تمسك بيدها مصباحا صغيرا كانت تقول :

- هل ستذهبين دون ان تقبلية ؟

فهمت انها تتحدث عن كازيمير ٠

- ألا تريدين أن تلقى نظرة عليه ؟

- كلا يالولى أنى متعجلة للغاية لاينبغى أن يعرف انى جئت ٠

اطبق صمت وحركات لم ادرك معناها في البداية ثم إضطرب المصباح عاكسا ظلالا متراقصة

تقدمت الانسة فيردور وتقهقرت ايزابيل بضع خطوات ثم سمعت :

- بلى بلى ذكرى لك منى إحتفظت به منذ وقت طويل أما الان فقد تقدمت بى السن فماذا افعل به ؟

- لولى لولى أنت خير ما اتركه هنا

ضمتها الانسة فيردور بين ذراعيها :

- أه ! يا للمسكينة ! إنك مبلله تماما ٠

- امعطف فقط ليس هناك من خطر دعينى أذهب بسرعة

- خذى معطفايقيك المطر على الاقل

- كف المطر والمصباح

- ماذا سأفعل به ؟ العربة قريبة جدا الوداع ٠٠

- الوداع يا ابنتى المسكينة أتمنى من الله ٠٠٠

غابت بقية العبارة في النحيب ومكثت الانسة فيردور بضع لحظات ماثلة بجسمها في ظلام الليل ٠وصعدت هبهريح رطبة من الخارج الى بير السلم ٠ ثم سمعت الانسة فيردور تدفع المزلاج في الباب الذى كانت قد اغلقته لم يكن ممكنا أن امر امام الانسة فيردور ٠٠ وكان جراسيان يحمل في كل مساء مفتاح باب المطبخ وكان هناك باب اخر في الطرف الاخر منالقصر ٠ كان من السهل أناخرج منه ٠ لكن الطريق اليه كان طويلا ٠وقبل ان ابلغة تكون ايزابيل قد وصلت الى عربتها ٠ آه ! لو أناديها من النافذة ٠٠ أسرعت الى حجرتى كان القمر قد عاد الى الاختفاء فانتظرت لحظة ارقب صوت الخطى فهبت ريح شديدة ٠ وبينما كان جراسيان يعود الى المطبخ سمعت من خلال حفيف الاشجار المضطربة عربة ايزابيل وهى تنطلق مبتعدة ٠

(٧)

اجلت كل مايهمنى وما ان عدت الى باريس حتى استغرقتنى المشاغل التى صرفت اليها ذهنى وإستأثرت بتفكيرى ٠ كان القرار الذى إتخذته بخصوص عودتى الى الكارفورش في الصيف القادم قد خفف من حدة اسفى لانى لم اتماد في المغامرة التى كنت قد بدأت أنساها عندما تلقيت اشعارا مزدوجا في نهاية يناير ٠ فقد توفى السيد فلوش ولحقت بهزوجه بعد فترة قصيرة ٠ على المظروف تعرفت على خط انسة فيردور ولكنى ارسلت الى كازيمير بعبارت الاسف والمشاركة المألوفة وبعد اسبوعين تلقيت هذه الرسالة :

" عزيزى السيد جيرار ٠

(لم يرغب الصبى انيدعونى بلقب العائلة وكانقد سألنى في احدى نزهاتنا وبالتحديد في اليم نفسة الذى بدأت أحدثه فيه بلا كلفه قال : مأسمك ؟ - ولكنك تعرفه ياكازيمير أسمى السيد لاكاز ٠٠ فعاد يقول : كلا لا اريد هذا اللقب اريد اسمك انت ٠٠)

" جميل منك أنت تكتب لى كان خطابك جميلا لان الكارفورش الان اصبحت حزينة أصيبت جدتى بوعكة يوم الخميس ولم يعد بامكانها مغادرة حجرتها وقد عادت والدتى الى الكارفورش ورحل الاب عنها لانه عين خوريا في بروى " كان موت خالى وخالتى بعد ذلك مات خالى اولا وكان يكن لك حبا كبيرا وفي يوم الاحد التالى ماتت خالتى بعد مرض ثلاث ايام لم تكن امى موجودة وكنت وحدى مع لولى ويلفين زوجة جراسيان وهى تحبنى كثيرا كان امرا يبعث على الحزن والاسى لان خالتى لم تكن تريد أن تفارقنى ٠ ولكن لم يكن هناك مفر من ذلك ٠ أنا الان انام في حجرتى بجوار ديفلين لان لولى تركتنى الى اخ لها استدعاها في " الاورن " وجراسيان ايضا لطيف معى للغاية علمنى طريقة الغسل وتلقيح الاشجار وهو ما يسلينى كما اساهد في تحطيم الاشجار ٠ تذكر الورقة التى كتبت لى فيها تعهدك ٠ عليك بنسيانها فلن يكون هنا احد في استقبالك الا انه يحزننى كثيرا الا اراك مرة اخرى لانى احببتك حبا صادقا ولن انساك ٠ صديقك الصعير كازيمير ٠"

لم اكترث كثيرا لوفاة السيد فلوش وزوجه لكن هذه الرسالة العفوية حركت مشاعرى كنت مشغولا وقتها الا انى اخذت عهدا على نفسى بأن اخرج في جولة استكشافية حتى الكارفورش ما ان تبدأ اجازة عيد الصح ٠ فماذا يعنينى في عدم استقبالى ؟ سوف انزل في " البون – ليفيك " واستاجر عربه فهل انا في حاجة الى اضافة احتمال لقاء ايزابيل الغامضة والتى تجذبنى قد شفقتى على الصبى ! كانت بعض فقرات الرسالة غامضة لى ووجدت عناء في ربط الاحداث مرض العجوز وصول ايزابيل الى الكارفورش رحيل القس وفاه العجوزين في غياب ابنه الاخت سفر الانسة فيردور ٠٠ هل ينبغى الا ارى في كل ذلك غير سلسلةمن الاحداث العرضية ام كان ينبغى ان ابحث عن صله تربط بيها ؟ لو حاولت فلا كازيمير سيفيدنى ولا القس سيخبرنى ٠

اضطررت للانتظار حتى شهر ابريل وجاء اليوم الثانى من اجازتى فسافرت ٠

على محطة " بروى " لمحت القس سانتال يتهيأ ليسقل قطارى فناديته فاجابنى قائلا :

- هل عدت الى البلدة مرة اخرى ؟
- لم اكن اتصور انى سأعود الها فعلا بهذه السرعة

صعدت الى ديوانى كنا فيه وحدنا

- ايه حدثت امور جديدة بعد زيارتك
- نعم علمت انك عينت خوريا في " بروى "
- دعك من هذا

مد يده في حركة فهمتها فقال

- هل وصلك اشعار ؟
- نعم وعلى الفور ارسلت بعزائى لتلميذك فهو الذى اخبرنى ولكنه لم يخبرنى الا بالقليل وكنت سأكتب لك لاسألك بعض التفاصيل
- كان ينبغى أن تفعل ذلك

فأضفت ضاحكا :

- تصورت انك قد لاترحب باطلاعى على شىء

لكنه كان يبدو اقل تكتما مما كان ايام الكارفورش وبداعليه الاستعداد للكلام

- هل تصدق ان كل ما يحدث هناك ان يبعث على الاسى والحزن ؟

جميع الممرات سوف تمر بالمحنة نفسها ٠

لكنى لم ادرك قصدة من اول وهلة الا انى تذكرت عبارة كازيمير عندما قال " اعاون في تحطيم الاشجار "

فسألته بسذاجة :

- ولماذا ذلك ؟
- لماذا ؟ آه ياسيدى الطيب ٠ سل إذن الدائنين عن ذلك ٠ ثم ان الامر لايعنيهم بل ان كل شىء يجرى بدون علمهم٠ الضبعة غارقة في الديون والأنسة دى سان – اوريول تسلب ما يمكنها سلبه
- هل هى هناك ؟
- كأنك لاتدرى
- استنتجت ذلك من بعض عبارت ٠٠٠٠
- ساءت الامور منذ وصولها

صمت لحذة لكنه لم يتمكن من مقاومة حاجته للكلام هذهالمرة ٠ بل لم يعد ينصت لأسئلتى وجدت أن الأفضل الا اوحه له سؤالا فاستطرد يقول :

- كيف علمت هى بشغل والدتها ؟ هذا مال ماجد له تفسيا وعندما علمت ان البارونة العجوز لم يعد في إمكانها مفارقة مقعدها حضرت بمتاعها ولم تجرؤ مدام فلوش على طردها ٠ وهنا رحلت أنا ٠
- من المؤسف أنك تخليت عن كازمير بهذه الطريقة
- ربما لكن مكانى ليس جوار هذه المخلوقة ٠٠ نسيت أنك كنت تدافع عنها
- وقد أدافع عنها أيضا لو كان ثمة مجال لذلك ياسيدى الخورى
- كما تحب ٠ نعم ، نعم فالانسة فيردور كانت تدافع عنها ايضا وظلت تدافع عنها حتى رأت سيديها على فراش الموت ٠

راقنى أن القس تخلى عن التأنق في إستخدام اللفظ الذى كان يتوخاه في الكارفورش ٠ أصبح يستخدم من الايماءات والألفاظ مايميز خوريا في قرية نورماندية ٠ إستأنف حديثة بقوله :

- هى أيضا وجدت من الغريب أن يموت الأثنان في وقت واحد
- هل ؟٠٠٠
- أنا لا أزعم شيئا

نفخ شفته العليا كعادته القديمة وعاد يقول :

- لايمنع أنهم بدأوا يتندرون في البلدة ٠ويسوؤهم ا، ترث الفتاة خالتها أنت رأيت بنفسك أن الأنسة فيردور أثرت الرحيل
- ومن بقى الى جوار كازيمير ؟
- آه ! لعلك أدركت أن امه لاتصلح معشرا حسنا له ! وهو يقضى كل وقته عند آل " شوانتروى " أقصد البستانى وزوجته
- جراسيان ؟
- أجل جراسيان الذى عارض تحطيم اشجار الحديقة الا أنه لم يتمكن من منع شىء ٠ إنها مأساة
- على كل لم يكن آل فلوش معدومين
- كل شىء سلب من اليوم الاول ياسيدى العزيز ٠ كانت مدام فلوش تمتلك مزرعتين من الثلاث التى تتألف منها الكارفورش فبيعت هاتان المزرعتان منذ أمد للمزارعين ٠ اما الثالثة من أملاك البارونة لكنها لم تعد تؤجر للفلاحين فكان جراسيان يشرف على محصولها وسرعان ماعرضت للبيع هى الاخرى ٠
- الكارفورش تعرض للبيع !

- بالمزاد ٠ لكن هذا لن يتم قبل نهاية الصيف ٠ صدقنى أن الأ نسة تستفيد من هذا الوضع حتى يحين وقت البيع ٠ وستبذل في سبيل ذلك مابوسعها فعندما يتم نزع نصف الاشجار ٠٠٠
- كيف يتقدم أحد لشرائها منها وهى لاتملك حق بيعها ؟
- آه ! أنت لا تزال شابا حدث السن ٠ عندما تعرض السلعة بثمن زهيد تجد دائما من يشتريها
- أى محضر يمكنه أن يحول دون ذلك
- المحضر متفاهم مع مدير أعمال الدائنين وهو يقيم بالكارفورش ، مال على أذنى وقال :
- مادامت تريد أن تعلم كل شىء فاعلم انه ينام معها

سألته دون أن اظهر تأثرا بعبارته الاخيرة :

- وكتب السيد فلوش وأوراقه ؟
- سيعرض أثاث القصر مع المكتبه للبيع قريبا ٠ بمعنى أصبح سيوقع عليها الحجز ٠ ولحسن الحظ فأن احدا لايدرك قيمه بعض المؤلفات والا لأختفت منذ زمن
- وقد يظهر أفاق فجأة !
- الآن وضعت الاختام فلا تخش شيئا فلن ترفع الا عند الجرد
- وماقول البارونه في هذاكله ؟
- لاتدرك شيئا ٠ فهم يقدمون لها الطعام في حجرتها ٠ وهى لاتعرف حتى أن إبتنها موجودة بالقصر ٠
- وماذا عن البارون ؟
- مات منذ ثلاثة اسابيع في " كابن " في ملجأ كنا قد وفقنا في إدخاله اليه ٠

بلغنا " بون ليفيك " فاقبل كاهن للقاء القس سانتال الذى إستأذن منى بعد أن دلنى على فندق ومؤجر عربات ٠

أوصلتنى العربة التى إستأجرتها في اليوم التالى حتى مدخل حديقة الكارفورش وإتفقت مع صاحب العربة على أن يرجع بعد ساعتين ليعود بى بعد أن تكون الجياد قد إستراحت في حظيرة إحدى المزارع ٠

وجدت باب الحديقة الحديدى مفتوحا علىمصراعية كانت أرضية الممر قد تلفت من جراء عربات النقل ٠ توقعت أن اشاهد أفظع مظهرا للدمار والخراب ولكنى فوجئت مفاجأة سارة أذ رأيت عند المدخل شجرة الزان ذات اوراق الخوخ وقد نبتت براعمها ٠ لم أفكر أنها لاتدين بحياتها الا لدنو أخشابها ٠ وبينما كنت أتقدم وجدت ان الفأس قد أتت على اجمل الأشجار وقبل أن اخوض في جوانب الحديقة أردت أن أزور الدار الصغيرة التى اكتشفت فيها رسالة ايزابيل ، ولكنى وجدت مكان مزلاجها المحطم قفلا مغلقا (علمت بعد ذلك أن الحطابين يكدسون في هذه الدار أدواتهم وملابسهم) ٠ مضيت في طريقى متجها الى القصر ٠ كان الطريق الذى سلكته مستقيما تحف به أشجار العوسج المنخفضة ولم يكد يؤدى الى واجهه القصر وإنما كان يؤدى الى جناح المرافق وينتهى الى المطبخ

الذى يطل على باب بستان الخضروات وكنت لم أزل بعد بعيدا عن ذلك الباب عندما شاهدت جراسيان يخرج منه حاملا سلة من الخضروات لمحنى ولكنه لم يتعرف على من أول وهلة فناديته فأقبل نحوى وبادرنى بقولة :

- آه ! السيد لاكاز ! حقا ما كان أحد يتوقع أ يراك في مثل هذا الوقت ٠

أخذ يتطلع الى وهو يهز رأسة ٠ لم يدارى تبرمه من حضورى ولكنه أضاف بلهجة اكثر رقة :

- ومع كل فسيسر الصبى لرؤيتك

كنا قد مشينا بضع خطوات نحو المطبخ دون كلام فأشار لى بأن أنتظرة ودخل ليضع سلته ثم عاد وقال لى بلهجة اكثر حفاوة :

- جئت إذن لترى كيف تسير الآمور في الكارفورش
- يبدو أنها ليست على خير مايرام !

نظرت اله إذ بذقنه يرتجف وظل ممسكا عن الاجابة وفجأة جذبنى من ذراعى واقتادنى الى العشب الذى كان يمتد أمام درج حجرة الاستقبال حيث كانت ترقد جثة شجرة زان ضخمة أذكر أنى أحتميت بها من المطر في الخريف ٠ كان من ولها اكداس وحزم من أغصانها منزوعة عنها قبل اقتلاعها قال لى :

- هل تعلم كم تساوى شجرة كهذه ؟إثنتا عشرة بستولة وهل تعلم بيعت بكم ؟بيعت هى وأمثالها بأقل من بستولة٠

لم اكن اعلم انهم في تلك البلدة يطلقون كلمة بستولة على قطعة النقود فئة العشرة فرنكان ولكن لم يكن ذلك وقت الاستفسار والاستيضاح كان جراسيان يتكلم بصوت مخنوق ٠
التفت اله فا ذبه يمرر ظهر يدة على وجهه فيمسح دموعا أو عرقا ٠ ثم ضم قبضته وقال:
- آوه ! يالهم من لصوص ! يالهم من لصوص ! عندما أسمعهم يضربون بسواطيرهم وفئوسهم أشعر بالجنون أن ضرباتهم تنهال فوق رأسى فأشعر برغبة في أن اصيح النجدة ! اللص ! وأشعر بالرغبة في القتل ٠ أول أمس قضيت نصف النهار داخل القبو كان الصوت يصلنى ضعيفا ٠٠ في بادىء الامر وجد الصبى في عمل الحطابين شيئا من اللهو والتسلية وعندما كانت الشجرة تشرف على السقوط كانوا ينادوهه ليشد الحبل معهم ٠ لكن عندما إقترب هؤلاء الافاقون من القصر وهم يواصلون إقتلاع الاشجار بدأ الصبى يشعر بأن الأمر لم يعد مدعة للتسلية ٠ واذ به يخاطبهم بقوله " آه ! دعوا تلك " فقلت له " ياصغيرى المسكين حتى لو تركوها فلن تكون لك هى وغيرها " وأخبرته بأنه لن يستطيع البقاء في الكارفورش ولكنه صغير لا يفهم أنهم سلبوه كل شىء ٠ لو أبقونا في المزرعة الصغيرة لما توانيت عن أخذه معنا ولكن احدا لايدرى من سيشتريها ومن سيكون الوغد الذى سيحتل مكاننا فيها ٠٠ وكما ترى ياسيدى فانا لست عجوزا بعد ولكنى كنت افضل أن أموت قبل أن أرى كل هذا

- ومن يقيم بالقصر الأن ؟
- لا أريد أن اعرف ذلك ٠ الصغير يتناول طعامه معنا في المطبخ ٠ وهذا خير له ٠
والبارونة لم تعد تفارق حجرتها ٠ وهذا لحسن حظها المكينة وديلفين هى التى تحمل اليها وجباتها عن طريق سلم الخدم حتى تتجنب لقاء من لاتحب ٠ أما الاخرون فلديهم من يقوم على خدمتهم ونحن لانتحدث مع أحد
- ليس من الفروض أن يوقع حجز على الأثاث قريبا ؟
- عندها سنحاول ا، نصطحب سيدتى البارونة الى المزرعة حتى تعرض للبيع مع القصر ٠
سالته مترددا لانى لم اكن أدرى كيف أدعونا : والانسة ٠٠٠وإبنتها ؟

- يمكنها ان تذهب حيث تشاء بعيدا عنا ٠ فكل ما يحدث هو بسببها ٠
كان صوته يرتجف من شدة الغضب بحيث ادركت كيف إستطاع هذا الرجل ان يصل الى حد إرتكاب جريمة للذود عنشرف سادته ٠
- هل هى الآن بالقصر ؟
- في هذه الساعة لابد أنها تتنزة في الحديثة ٠ ويبدو أن مايحدث لايضيرها فهى تتطلع الى الحطابين وفي بعض الايام تتحدث معهم بلا حياء ٠ لكن عندما تمطر السماء لاتفارق حجرتها ٠ أنظر ها هى حجرتها تلك التى تقع في الزاوية وهى تقف ملتصقة بزجاج النافذة تتطلع الى الحديقة ٠ لو لم يكن رجلها في " ليزبو " منذ ربع ساعة لما وجدتنى بالخارج ٠ آه ! هذه هى المدنية ياسيد لاكاز ٠ لو قدر لسادتى المساكين أن يعودوا ليروا ما يحدث في عقر دارهم لأسرعوا بالعودة الى مثواهم ٠
- كازيمير هل هو هنا ؟
- يتنزه أيضا في الحديقة ٠ هل تريد أن أستدعيه ؟
- كلا سأعرف كيف اعثر عليه بنفسى ٠ الى اللقاء قريبا ٠ سأعود لرؤيتك طبعا أنت وديفلين قبل الرحيل ٠

بدا الدمار الذى احدثه الحطابون بشعا في ذلك الوقت الذى يتهيأ فيه كل شىء ليبعث من جديد ٠ في ذلك الجو الفاتر كانت أفنان الاشجار تمتلىء وتنتفخ وتنبت فيها البراعم ٠ كان كل غصن قطع من شجرته يبكى عصارته ٠ كنت أتقدم في خطى وئيدة وأنا مكتئب النفس ٠ وكان يزيد اكتئابى ما كان يبعثه المشهد حولى من ألم ٠ ربما كنت ثملا من شدة الاريج النباتى الذى كان يخرج من الشجر المحتضر ووبطن الأرض انما يمثله ذلك التعارض بين تلك الأشلاء من الموتى والربيع الوليد لا يكاد يؤثر في نفسى وهكذا لم تكتفت الحديقة وفتحت ذراعيها للنور الذى بدأ ويصبغ مافيها من موت وحياةبلونه الهبى ومع ذلك فقد كانت دقات قلبى السعيدة تصاحب النغمات الحزينة التى كانت تأتينى من بعيد صادرة عن الفئوس التى كان صداها الجنائزى يملأ الأرجاء ٠ وكانت الرسالة القديمة التى حملتها معى وآليت على نفسى الا استفيد منها مع أنى في بعض الاحيان كنت اضمها الى قلبى تلهبه وتضرم فيه النار ٠ كنت احدث نفسى قائلا : لاشىء يستطيع أن يعترض سبيلى اليوم ٠٠ وإبتسمت عندما شعرت أنى أسرع الخطى لمجرد التفكير في

ايزابيل٠ لماكن مدفوعا في ذلك بإرادتى ولكن كانت بداخلى قوة تدفعنى الى ذلك عجبت لما في الدار من وحشية زادت ببهاء الطبيعة في عينى وعجبت كيف أن إغتياب القس لايزابيل لم ينجح في إبعادى عنها ٠ وأن كل ما كنت اكتفة فيها يلهب شوقى اليها ٠٠ ماذا ياترى لايزال يربطها بهذه الاماكن التى تفيض ذكريات بغيضة ؟ كنت أعرف أنه مامن شيء سيتبقى لها من الكارفورش عندما تباع ولن يبلغها منها عائد ٠ فلماذا لم تلذ بالفرار ؟ صور لى خيالى أن أقوم باختطافها ذلك المساء في عربتى فاسرعت خطاى ٠ بل كنت أعدو تقريبا عندما فوجئت بها على بعد مسافه منى ٠ كانت هى بلا شك في ثياب الحداد عارية الرأس جالسة فوق جذوع شجرة محطمة تعترض الممر ٠ دق قلبى بشدة لدرجة انى اضطررت للتوقف بعض الوقت وتقدمت في اتجاهها بخطى بطيئة وهدوء كما المتنزه الذى لا يعبأ بشيء ٠ وما أن بلغتها حتى سألتها :

- معذرة ياسيدتى ٠٠ أنا الان في الكارفورش اليس كذلك ؟

الى جوارها فوق جذع الشجرة كانت توجد سلة لاشغال الأبرة مليئة ببكرات الخيط وأدوات الحياكة وقطع من قماش الكريب ملفوفة على بعضها او منكوشة ٠ وكانت منصرفة الى تثبيت اجزاء من هذا القماش فوق غطاء متواضع للرأس مصنوع من اللباد كانت تمسكه بيدها ٠ رأيت على الارض شريطا اخضر يبدو أنها تزعته عن غطاء الرأس منذ قليل ٠ كانت تتدثر بمعطف صغير اسود يغطى كتفيها ٠ عندما رفعت هامتها أبصرت الابزيم المبتذل الذى كانت تغلق به ياقة المعطف لم أشك في انها لمحتنى من بعيد لأن صوتى لم يفاجئها ٠ قالت

- جئت تشترى الضيعة ؟

قالتها بصوتها الذى تعرفت عليه فدق له قلبى ٠ كم كان جبينها المكشوف جميلا !

- آوه ! بل جئت زائرا ٠ كانت الابواب الحديدة مفتوحةورأيت أنا سا يتجولون فهل اكون متطفلا اذ دخلت ؟
- كل من يريد الدخول يستطيع أن يدحل الآن

واطلقت زفرة عميقة لكنها عادت العملها كأنما لم يعد بيننا ما يقال ٠

ولما لم أكن ادرى كيف اواصل حديثا قد يكون الوحيد بينى وبينها فكان يجب ان يكون قاطعا ونهائيا حديثا بدا لى ان الوقت لم يحن بعد للخوض فيه فقد كنت انوى ان احتاط له قبل طرقه ٠ ولما كان عقلى وعاطفتى قد فاضا بالانتظار والاسءلة التى كنت لا اجرؤ بعد على توجيهما مكثت امامها ادفع بطرف عصاى شظايا الخشب وانا مرتبك بين قحة شديدة وسذاجة مفرطة في الوقت نفسه حتى رفعت بصرها وتفرسته في وجهى فظننت أنها ستنفجر ضاحكة الا انها قالت بكل بساطة وربما لاننى كنت اضع قبعة رخيصة اغطى بها شعرى الطويل ولم يكن يبدو ان ثمه عملا فعليا يستعجلى :

- هل انت فنان ؟

فأجبت مبتسما :

للاسف لا ! ولكنى اتذوق الشعر رغم ذلك ودون أن اجرؤ على النظر الها شعرت أن نظرتها تطوقنى وأن ما دار بيننا من حديث منافق مبتذل بغيض الى نفسى وانى اتألم اذ انقله فاستأنفت حديثى قائلا :

كم هى جميله هذه الحديقة !

لاج لة انها لاتريد الا ان تتحدث ولم يكن يحيرها – مثلى – الا كيفيه الدخول في المناقشة فقد صرحت بأنى لا استطيع الان للأسف ان اتصور ما يمكن ان تصبح عليه الحديقة في فصل الخريف فهى لاتزال بمنأى عن الشتاء وبرده ٠ كذلك لا استطيع ان أتنبأ بما سيبتقى منها بعد هذا العمل الرهيب الذى ينزله بها الحطابون فصحت قائلا ك

- الا يمكن منعهم ؟

فردت ساخرة وهى ترفع كتفيها عاليا :

- منعهم ؟!

ظننت انها ترينى قبعتها البائسة كشاهد على رقه حالها ٠ الا انها رفعتها لتضعها فوق رأسها مطروحة الى الوراء كاشفة جبينها ٠ ثم شرعت في ترتيب قطع القماش الكريب كأنما تتهيأ للانصراف ٠ فانحنيت عند قدميها والتقطت الشريط الاخضر وقد منه لها ٠

قالت دون ان تتناوله :

- ماذا اصنع به الان ؟ انك رى انى في ثياب الحداد

عبرت لها فورا عن الحزن الذى شعرت به عندما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجة ووفاه البارون بعدهما ٠ فلما ابدت دهشتها لمعرفتى اهلها اخبرتها انى عشت بينهم اثنى عشر يوما في اكتوبر الماضى ٠

عقبت في الحال قولها :

- لماذا زعمت منذ قليل انك لاتعرف اين انت ؟
- لم اكن ادرى كيف ابدأ الحديث معك ٠

ودون ان اشتفيض في الكشف عما في داخلى بدأت احدثها عن الفضول الشديد الذى أبقانى في الكارفورش يوما بعديوم أملا في لقائها (لم احدثها عن تلك الليله التى تطفلت عليها فيها) ثم حدثتها عن اسفى لعودتى الى باريس دون رؤيتها فقالت :

- وما مبعث كل هذه الرغبة في معرفتى ؟

لم تعد تتظاهر بالأنصراف ، وكنت قد جذبت حزمة ضخمة من الخشب وضعتها امامها بالقرب منها وجلست عليها • فلما كان وضعى منخفضا عنها رفعت بصرى لألراها وكانت منصرفة بطريقة صبيانية الى لف شرائط الكريب فلم اعد احظى بنظراتها • وحدثتها عن صورتها وأبديت قلقى لما يمكن أن تصير اليه هذهالصورة التى كنت مغرما بها ولكنها لم تدر من أملر ذلك شيئا واضافت وهى تطلق ضحكة تألمت لجفافها :

- ربما يعثرون عليها عندما يرفعون الاختام ثم تعرض للبيع مع غيرها وتستطيع ان تحصل عليها مقابل بضعة نقود اذا كان قلبك لايزال متعلقا بها •

عبرت لها عن اسفى اذا لم تأخذ شعورى نحوها مأخذ الجد • واوضحت لها أنى اذا كنت فاجأتها بالتعبير عنه فأنه يشغل بالى منذ فترة طويلة • الا أنها ظلت جامدة كأنما قررت الا تسمع بعد ذلك شيئا منى • كان الوقت يمضى سريعا • ألم يكن عندى ما أقطع به صمتها ؟ كانتالرسالة الملتهبة تنتفض بين اصابعى • وكنت قد فكرت في قصة إختلقها عن علاقات قديمة بين عائلتى وعائلة جونفريفيل بهدف حملها على الكلام • ولكنى في تلك اللحظة لم اشعر الا بسخافة هذه الكذبة وبدأت اروى لها قصة المصادفة الغريبة التى اوقعت هذه الرسالة في يدى • ناولتها الرسالة قائلا :

-آه ! أتوسل اليك ياسيدتى لاتمزقى هذه الرسالة ! أعيديها الى • كان وجهها قد شحب شحوب الموت وظلت لحظة دون أن تقرألرسالة المفتوحة فوق ركبتيها غامت نظراتها ورجفت أهدابها واذ بها تهمهم قائلة :

- نسيت أناستعيدها ! كيف نسيتها ؟!

- ربما إعتقدت أنها وصلته أو أنه حضر لأخذها •••

كانت لاتزال منصرفة عنى لاتعيرنى سمعا واتيت بحركة لاسترداد الرسالة ولكنها أساءت تفسير حركتى فصاحت بى قائلةوهى تدفع يدى في خشونة :

- دعنى !

ونهضت رغبة في الفرار فجثوت أمامها أستبقيها :

- لاتخافى منى ياسيدتى فأنا كما ترين لا أريد بك سوءا • وعندما عادت الى الجلوس او بالاحرى عندما إنهارت خائرة القوى توسلت اليها الاسيخط على إن كانت الصدفة قد إختارتنى لأكون أمينا على سرها رغما عنى • وتوسلت اليها أن تبقى على هذه الثقة التى أقسمت الا اخونها ما حييت • آه ! لماذا لاتحدثنى كصديق حميم لا يعرف من امرها الا ماتطلعه عليه بنفسها ؟

ربما أقنعتها عبراتى التى ذرفتها اكثر مما اقنعها حديثى وعدت أقول :

- وأسفاه ! أعلم فظاعةالموت الذى سلبك حبيبك في تلك اللليلة ٠٠٠ ولكن كيف بلغك هذا الخبر المشئوم ؟ وماذا صور لك كخيالك في تلك الليلة وأنت عاكفة على إنتظاره مستعدة للهرب معه ؟ وماذا صنعت عندما وجدت أنه لايظهر ؟

قالتبصوت حزين :

- طالما أنك تعلم كل شيء فأنت تعلم طبعا أنى لم أكن أنتظرة بعد أن اخبرت جراسيان وفجأة تجلت الحقيقة في ابشع صورها فلم استطع أن امسك نفسى عن الصياح :

- ماذا ؟ أنت التى اوعزت بقتله ؟

وهنا هوت منها الرسالة والسلة على الارض وتناثر ما كان فيها من اشياء ووضعت جبينها بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء بغير وعى فملت عليها وحاولت ا، اتناول يديها بين يدى فصدتنى قائلة :

- كلا أنت جاحد قاس

كانت صيحتى الهوجاء قد أتت على إطمائنانها من ناحيتى فقطبت جبينها وعبست في وجهى وكنت لا أزال جالسا أمامها وقد عقدت العزم على الا افارقها قبل أن تصرح لى بأكثر مما عرفت ٠ أخيرا هدأ نشيجها فأقتعتها بهدوء أنها استطردت في الكلام بحيث لا تستطيع أن تمسك عنه دون ايذاء ٠ وأنها لو افضت لى باعتراف صادق فلن يقلل ذلك من شأنها في نظرى وانه لايحز في نفسى اكثر من لزومها الصمت ٠ أسندت مرفقيها على ركبتيها وحجبت جبينها بيديها المتشابكتين وقصت :

كانت قد كتبت هذه الرسالة في الليله السابقة لليلة التى قررت يها الهروب ٠ كتبتها في غمار لوعة الغرام التى تملكتها في تلك الليلة ٠ وفي الصباح حملتها الى الدار ووضعتها في ذلك المكان السرى الذى كان يعرفه " بلير جونفريفيل " وكانت تعلم انه سرعان ما سيأتى لاخذها ولكنها ما أن عادت الى القصر ووجدت نفسها في تلك الحجرة التى كانت تريد أن تغادرها الى الأبد تملكها ضيق لايمكن وصفه وخوف من تلك الحرية المجهولة التى طالما تلهفت لها والخوف من ذلك العاشق الذى كانت لاتزال تتوق اله والخوف من نفسها ومما كانت تخشى الأقدام عله ٠ أجل كانت قد اتخذت قرارها أجل وأبعدت عنها كل ريبة أوشك وأرتضت ان تجرع العار ولكنها ما أن وجدت أنه ليس هناك مايقيدها ويحول بينها وبين الباب المفتوح للفرار ضعفت ولم يطاوعها قلبها وباتت فكرة الفرار بغيضة الى نفسها لاتطيقها فأسرعت وأبلغت جراسيان أنالبارون جرونفرفيل عقد العزم على اختطافها من أهلها هذه الليلة بالتحديد وأنه قد يجده وهو يحوم قبل المساء بالقربمن الدار ولابد من منعه من الاقتراب ٠

عجبت لأنها لم تذهب لتسترد الرسالة بنفسها وتستبلها بغيرها لصد عشيقها عن مشروعة الجنونى ولكنها كانت لاتتوانى عنالتهرب من اسئلتى وأخذت تردد وهى تبكى أنها تعلم تماما أنى لا يمكن أن أفهمها وأنها لاتستطيع أن تفسر أفضل من ذلك ولكنها في ذلك

الوقت كانت تشعر أنها عاجزة عن صد عشيقها عاجزة عن اللحاق به ٠ كانالخوف يشل حركتها فأصبح رجوعها الى الدار أمرا فوق طاقتها ثم في تلك الساعة من النهار كان ابواها الرهيبان يراقبانها ولهذا إضطرت للجوء الى جراسيان ٠

- هل كان بوسعى أن اقدر أن جراسيان سيأخذ مأخذ الجد ذلك الكلام الذى فلت منى في غمرة هذيانى ؟ تصورت أه سيكتفى بإبعادة وانتفضت فزعا عندما سمعت بعد ساعة طلقا ناريا بالقرب من الباب الحديدى الا ان تفكيرى تحول عن الاحتمال الرهيب الذى لم أتصوره بل على العكس فبعد أنأخبرت جراسان هدأ فكرى وقلبى وشعرت بالابتهاج ٠٠ ولكن عندما هبط الليل ودنت الساعةالتى كان من الفروض أنتكونموعدا لفرارى وجدتنى أنتظر رغما عنى ٠ وبدأ الأمل يداعبنى ويمتزج بيأس ٠ نوع من الاطمئنان الذى كنت أعلمتماما أنه كاذب ٠ لم أكن استطيع تصور أن أجبن لحظة أو إنهيار ساعة زمن يمكن أن يقضى دفعة واحدة على حلمى الطويل فلم أكنقد أفقت بعد من حلمى واذ بى كأننى في حلم أهبط الى الحديقة ارصد كل صوت وأترصد كل شبح فقد كنت لا أزال أنتظر ٠٠
وشرعت تبكى من جديد ثم إستطردت في قولها :
- كلا لم أعد أنتظر بل كنت أحاول خداع نفسى فكنت أشبه بمن تنتظر شفقة بنفسها ٠ كنت أجلس أمام الخضرة فوق اسفل درجات الشرفة وقد يبس القلب ولم اكن اقوى على ذرف دمعة٠
وجدتنى افكر في شىء بل لا ادرى حتى من أكون ولا اين كنت ولا ماجئت من اجله ٠ غاب القمر الذى كان منذ قليل يغمر العشب بنوره فانتابتنى رعشه وتمنيت أن تكون رعشة الموت ٠ طلع النهار فاذ بى فريسة مرض خطير فاستدى الطبيب الذى كاشف امى بأمر حملى ٠
توقفت لحظة ثم عادت تقول :
- عرفت الآن ماكنت ترغب في معرفته ٠ لو إستكملت قصتى ستجدها قصة إمرأة أخرى غير إيزابيل التى طالعتها في الصورة ٠
بالفعل أصبح من العسير على أن أتعرف على تلك الأنسانة التى سلبتخيالى ٠ صحيح أنها كانت تقطع حديثها من آن لأخر بالأنين والشكوى متحاملة على القدر وكانت تشكو من الشعر والعاطفة اللذان دائما ما يكونا على خطا في هذا العالمالا انى كنت أشعر بالأسف لأنى لم أتبين في صوتها الحزين تلك الحرارة اللطيفة التى تصدر عن القلب ٠ لا آسف الا عليها ! عجبا ! أو هكذا تصورت الحب ! ٠٠

وأذ بى التقط الأشياء التى تناثرت من السلة المتقلبة فوق الأرض ٠ ولم أعد أشعر برغبة في زيادة الأستفسار ٠ ووجدتنى لا اكترث فجأة بشخصيتها ولا بحياتها ٠ ومكثت أمامها أشبه بغلام أمام لعبة حطمها ليكشف عن سرها بل إن الفتنة الجسدية التى كانت لاتزال تتمتع بها لم تحرك منى ساكنا ولا خفق أهدابها المنير الذى كنت أنتفض له منذ قليل أهاجنى ٠ كنا نتحدث عن رقة حالها وإحتياجها فسألتها عما تنوى عمله فأجابت :

- سأسعى ا لى اعطاء دروس خصوصية في العزف او الغناء فلدى طريقة جيدة
- آه ! هل تغنين ؟
- أجل وأعزف ٠ درست كثيرا في السابق وكنت تلميذة لتاربيلج وأحب الشعر كثيرا ٠

ولما لم أجد ما أقوله لها أضافت قولها :

- أنا على ثقة من أنك تحفظ بعض الشعر عن ظهر قلب ! الا تحب أن تسمعنى منه شيئا ؟

لكن النفور والتقزز ساعدا على الاجهاز على الحب في داخلى فنهضت لأستأذنها في الأنصراف فقالت :

- عجبا ! أتنصرف بهذهالسرعة ؟
- للأسف ! أنت مثلى تشعرين انه من الأفضل أنأنصرف الآن

تصورى أنى كنت بينأهلك في يوم من ايام الخريف الماضى ٠ وقد جعلتنى حرارة الجو في الكارفورش أستسلم للنوم وأرى حلما لم أفيق منه الا منذ لحظة ! الوداع

عند طرف الممر ظهر من يعرج فقلت :

- أعتقد انى المح كازيمير الذى يجىء للقائى
- هو قادم فانتظر

كان الصبى يقترب في وثبات قصيرة وكان يحمل فوق كتفهمجرافا

- إسمحى لى أن أذهب للقائه فقد يحرج أن وجدنى معك ٠

معذرة

عجلت بوداعى بطيقة خرقاء فحييتها في أدب وإنصرفت ٠

لم أر ايزابيل دى سان – اوريول بعد ذلك ولم أعلم عنها شيئا بلى فعندما عدت الى الكارفورش في الخريف التالى أخبرنى جراسان أنها هربت مع حوذى عشية الحجز على اثاث القصر بعد أن هجرها مدير الأعمال وأضاف جراسيان كمن يلقى حكمة :

- كما ترى سيد لاكاز لم تستطيع ان تبقى وحدها كان لابد لها من عاشق دوما ٠

بيعت مكتبه الكارفورش في منصف الصيف ٠ وعلى الرغم من التعليمات التى أوصيت بها لم أعلم بذلك وأعتقد أن صاحب " مكتبه كان " الذى ندب للآشراف على عملية البيع لم يهتم بدعوتى كما لم يهتم بدعوة أى من هواه الكتب الجادين ٠ وكم كانت دهشتى وسخطى عندما علمت فيما بعد أن نسخة التوراة الشهيرة بيعت بسبعين فرنكا لبائع كتب قديمة في البلدة ٠ وسرعان ماباعها بثلاثمائة فرنك ٠ ولم أعرف المشترى الجديد ٠

أما عن مخطوطات القرن السابع عشر فلم يأت ذكرها حتى في كشف المبيعات واعتبرت أوراقا قديمة ٠

كنتأريد أن احضر عملية بيع الآثاث على الاقل فكنت أنوى شراء بعض الاشياء الصغيرة كذكرى منآل فلوش ولكنى أخطرت بعد فوات الأوان ولم أتمكن من الوصول الى " بون ليفيك " الا عندما عرضت المزارع والضيعة للبيع ٠

حصل على الكارفورش مقابل ثمن بخس تاجر عقارات يدعى " موزر سميدث " ينوى تحويل الحديقة الى مرعى بعد أن أشتراها منه أحد الهواة الأمريكيين ٠ لم أدر سبب شرائه لها لأنه لم يعد الى البلدة وترك القصر والحديقة على حالهما ٠

ولما كنت قليل الثروة في ذلك الوقت تصورت أنى لن أحضر عملية البيع الا مشاهدا ٠ ولكنى في صباح ذلك اليوم كنت قد رايت كازيمير عندما سمعت المزايدات فتملكنى ضيق شديد وأنا أفكر في مأساة هذا الصبى فقررت فجأة أن أؤمن له حياته في المزرعة التى يتمنى جراسان أن يقيم فيها – هل كنتما تعلمان أنى أصبحت مالكا لها ؟ فدون أناقدر مأأنا مقدم عليه وجدتنى أرفع المزاد كان هذاجنونا منى ولكن بهجة الصبى التى بعثت الاسى كانت اعظم مفاجأة لى ٠

ذهبت الى هذه المزرعة لقضاء عطلة عيد الفصح وعطلة الصيف التالى عند جراسيان حيث كان يقيم كازيمير ٠ كانت مدام دى سان – اوريول العجوز لاتزال على قيد الحياة ٠ كنا قد حاولنا قدر إستطاعتنا أن نترك لها أحسن حجرة ٠ وكانت من فرط تقد سنها ومامربها من أحداث قد رجعت الى عهد الطفولة ٠ ولكنها مع ذلك تعرفت على بل لم تكن قد نسيت أسمى تماما فعندما رأتنى جعلت تردد في البداية :

- ما الطف هذا ياسيد لاسكاز ما الطف هذا منك !

فقد كانت تعتقد انى ماجئت الى البلدة الا لزيارتها

قالت معبرة عن إطمئنانها لى كما لو كانت توضح أسباب ما آلت اليه من رقة حال أو كأنما توضح لنفسها :

- يقومون ببعض الأصلاحات في القصر ٠ وسيصبح جميلا للغاية ٠

يوم أن عرض الاثاث للبيع كانوا قد اخرجوها الى شرفة حجرة الاستقبال في مقعدها الكبير ذو المساند ٠ قدموا لها المحضر على انه مهندس معمارى شهير من باريس بشكل خاص ليشرف على الاعمال التى ستنفذ (كانت تصدق بسهولة كل مايروقها) ثم قام جراسيان وكازيمير وديفلين بنقلها الى تلك الحجرة التى قضى عليها الا تفارقها مع أنها ظلت تعيش فيها ثلاثة أعوام أخر ٠

خلال ذلك الصيف الاول الذى أمضيته في مزرعتى تم تعارفى بآل (ب) ٠٠ وتزوجت من إبتنهم الكبرى فيما بعد ٠ ولم تكن مزرعة (-) التى آلت الينا منذ وفاة اهل زوجتى بمنأى عن الكارفورش وفي كل عام أعود الها مرتين او ثلاث مرات فأتحدث مع

جراسيان وكازيمير اللذين يقومان بفلاحة أرضها على خير وجه ويسددان لى بانتظام قيمة الايجار المتواضعة. وعندما تركتكما منذ قليل كنت قد ذهبت اليهما.

كان الليل قدتقدم عندما أنهى جيرار حكايته ٠ الا أن جام قبل أن ينام في تلك الليلة ذاتها كتب مرثية رابعة جاء فيها :

" لما طلبت منى أن أنعى هذه الضيعة المهجورة حيث الرياح العاتية ٠٠٠٠"

النهاية.